
26
روايات مصرية للجيب
الظاهرة
سافاري
د. أحمد خا

مقـــدمة

(ســافارى) مصطلــح غربــى تــم تحريفــه عــن كلمـــة (سافريّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (ســافارى) فهم يتحدثــون عــن رحــلات صيــد الوحــوش فــى أدغــال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطــاد المرض فى القــارة الســوداء .. ووســط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنـــا الـــذى ســنقابله دومًــا ، ونألفــه ، ونتعلـــم أن نحبـــه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشــباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لا تنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معـه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلــة لحــوم البشــر .. والمرتزقــة الذيــن لا يمزحـــون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون) ..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

* * *

ملحوظة مهمة : أكثر المصطلحات والأسماء الغربية الواردة هنا قمت بكتابتها بالإنجليزية ، والسبب ليس التحذلق ولكن لأن بعض الأصدقاء طالبونى بهذا مرارًا ، ليسهل عليهم معرفة الهجاء الصحيح ، فالبحث عن المزيد من التفاصيل فى الإنترنت إذا أرادوا .. هذا مطلب عادل مهم .. ولسوف أحاول الالتزام به فى كل ما أكتبه فيما بعد إن شاء الله ..



« الآن بدأ الزمن يزحف على .. إننى مصاب بالسكرى وارتفاع ضغط الدم .. وحالة قلبى ليست على ما يرام .. لاحظ أننى لم أتلق أية أدوية محترمة طيلة هذه الأعوام ..

« عرفت أننى أموت .. لكن فكرة الموت لم تثر رعبى .. ما أثار رعبى هو أن ألفظ أنفاسى هنا فتتوقف تجاربى العظيمة وكل ما عشت من أجله .. من المؤسى أننا نموت بعد ما اكتسبنا ذروة الخبرة ..

« وهكذا بدأ مشروعى الأكبر .. بدأتُ بتحطيم كل البلورات كى يتحرر ما فيها من طاقة .. كنت بحاجة إلى قوة عظمى متحدة .. ويبدو أن هذه الطاقة كانت تعرف كيف تتحرر من خلال المدخنة فوق القمة .. تخرج منها وتعود لها .. لقد شهد الجبل أيامًا مروعة .. الناس يرون أشباحًا ، وثمَّةَ أشياء مخيفة تهاجم البيوت .. وأفراد القبائل يرون الموتى بين أكواخهم .. أعتقد أن هذه كانت جميعًا هلاوس بصرية ..

« بعد هذا كتبت هذه الأوراق .. وحين أفرغ منها سأدخل المفاعل وأرقد مع كل هذه الطاقة التى استخرجتها عبر عشر سنوات .. سأحاول ـ فى لحظات احتضارى الأخيرة ـ أن أبحث عن شاب قوى يتلقى كل ما لدى من علم .. شاب يستكمل تجاربى من النقطة التى انتهيت عندها ..

« أنا بحاجة إلى طبيب .. طبيب شاب قوى .. يجب أن يأتى إلى هنا ويفتح المفاعل ويتلقى طاقتى وطاقة مواضيع تجاربى .. أعتقد أن هذا سيجعله أنا آخر .. لكن كيف أحضر الشاب إلى هنا ؟ كيف أقنعه بتسلق (كليمنجارو) ؟ كان هذا مستحيلاً حتى فكرت فى (سافارى) .. فى (سينوريه) الذى كان سبب توقف تجاربى .. ترى هل ما زال هناك ؟ هل ما زال حيًا ؟

« أعرف أننى أستطيع .. أعرف أننى سأجعله يرسل لى شابًا بحجة واهية .. سأجعله يقتنع ويقنع كل أحبائه .. فقط أريد كل هذه الطاقة .. لو كانت تسبب هلاوس سمعية وبصرية للأهالى فإنها قادرة على الإيحاء ..

« والآن يا عزيزى الطبيب الشاب الذى لا أعرف اسمه .. لقد جئت .. لقد تلقيت الطاقة .. إنها فى كل جزء من جسدك الآن .. ستجدنى بالتأكيد جثة هامدة ، لكن طاقتى موجودة وهى داخلك الآن .. مع طاقة عشرات الأفارقة الذين ماتوا وهم يتعذبون ..

« سامحنى على ما قمت به .. وأتمنى لك حظًا سعيدًا فى تجاربك القادمة ..

بإخلاص : إرنست كومارسكى »

صفحات من مذكرات د. (علاء عبد العظيم) :

السبت ١٨ مايو :

العودة إلى الوطن ! ثلاث كلمات لكنها تعنى أشياء وأشياء .. لا أعرف كيف يعتبرها البعض تجربة بسيطة .. إننى لأجد فيها ذات غرابة وإثارة العودة من المريخ إلى الأرض .. منذ دقائق .. ساعات .. أيام .. لا يهم .. منذ فترة ما ، كنت فى عالم آخر .. مشكلات أخرى .. وجوه أخرى .. لغات أخرى ..

كان هناك جزء من عقلى يسيطر على كل شىء .. هذا الجزء يتكلم ويفكر بالفرنسية ، وله مشكلات وخبرات طبيب من وحدة (سافارى) .. فجأة انتهت سيطرة هذا الجزء وتولى زِمامَ الأمور جزء آخر يتكلم العربية .. يحب كرة القدم ، ويعشق الكشرى ، وله ذكريات بنت الجيران و(الدوم) والكرة الشراب .. من جديد صرت فى الجو ، وعادت الحياة إلى كل ركن ، بينما كنت أحسب أننى لن أتأقلم إلا بعد شهور ..

أنا أعرف أن تحول د. (جيكل) إلى مستر (هايد) كان أليمًا .. لم أر قط تحولاً يتم بهذه البساطة والسرعة .. والآن يخيل لى كأن (سافارى) كلها كانت حلمًا ما .. حلمًا مثيرًا فيه أوبئة وقبائل وجبال يغطيها الثلج ..

الرابط الوحيد بين العالمين والذى يبرهن لى على أننى كنت بالفعل (علاء عبد العظيم) فى العالمين هو من تمشى بجوارى .. زوجتى الرقيقة التى تضع قدمها على أرض مصر للمرة الأولى ..

متوجسًا هامسًا قلت لمصر وأنا أخرج من باب المطار :

ـ « ما رأيك فيها ؟ هذه هى ! »

تأملتها مصر فى اهتمام .. ثم غمغمت :

ـ « هذه إذن من كنت تفكر فيها وأنت نائم ، وتحلم بها وأنت مستيقظ ؟ »

شعرت برعب وقلت وأنا أبتلع ريقى :

ـ « ألا تستحق ؟ »

قالت فى حكمة :

ـ « عهدى بك أنك لاتحب بعقلانية بل تنزلق .. (تتدلق) كما يقول التعبير العامى الموفق .. لكن على كل حال .. لا بأس بها .. مهذبة رقيقة هى .. وأعتقد أننى سأحبها .. »

ـ « صدقيني .. إن من لا يحب (برنادت) لم يولد بعد .. إنها تذكرني بـ (ميكي ماوس) أو (شارلي شابلن) .. شيء عالمي يتفوق على مقاييس الاختلاف البشري .. »

ابتسمت في حنكة وحكمة المجربات اللاتي لا يبهرهن شيء ، وقالت :

ـ « ليس إلى هذا الحد .. أنت لهب مشتعل لا يعرف الاعتدال ، لكني أعتقد أنها طيبة وتناسبك .. »

عندئذ عرفت أن مصر و(برنادت) ستكونان صديقتين .. ربما أكثر ..

وقالت لي (برنادت) وهي ترى شرودي وأنا أدفع الحقائب :

ـ « فيم الصمت ؟ »

طبعًا لم أستطع إخبارها بالمحادثة التي تمت بيني وحماتها الكبرى (مصر) ، لهذا قلت وأنا أدفع الحقائب :

ـ « أتساءل أين ذهب (أشرف) ذلك الأحمق .. »

كان ذلك الأحمق بانتظاري بسيارته (الفيات ـ ١٢٤) المرعبة .. في مصر تتحول السيارة إلى كائن خالد لا يفنى .. مهما حدث لها ومهما دارت السنون هناك دائمًا الأسطى

(عباس) أو (رمضان) الذى يستطيع إعادتها للحياة .. وأنا على كل حال أهيم حبًا بهذه السيارة التى استولت عليها أسرتى بوضع اليد .. كل مهمات الأسرة وكل مشوار شاق لابد من توريط (أشرف) فيه .. لا أنسى العودة من الكلية فيها ، خاصة أيام المطر ، والاندفاع فى البرك كى يغرق الفتيات الواقفات كقطط حذرة إلى جانب الطريق ، فيتصاعد سبابهن وهن ينظفن تنوراتهن بالمناديل الورقية : يا حيوان .. يا متخلف ! أصارحه برأيى فى أنهن على حق .. وإنه حيوان متخلف فعلاً فيضحك .. والحقيقة أنه طفل كبير مزعج وطيب القلب إلى حد لا يوصف ..

أما عن مظهره فهو يزداد صلعًا وبدانة فى كل مرة .. ويبدو أن خلاياه حسبت نفسها خلايا كائن آخر أصلع بدين هو فرس النهر ..

تعانقنا على حين وقفت (برنادت) فى وقار على بعد خطوات .. إن (أشرف) أعز صديق لى ، ويصعب وصف رحلة حياتنا معًا .. من بعيد يأتى أخى الذى كان يراقب الباب الآخر .. إنه يشبهنى تمامًا فى الشكل والحجم - ولهذا كان يسرق قمصانى - لكنه أكبر سنًا حليق الوجه لا يضع العوينات ..

حتى هذه اللحظة ما زال الجليد موجودًا ، لكنى أعرف أنه سيذوب حالاً .. (برنادت) رقيقة طيبة ، وأهلى طيبون بسطاء .. إن اختلاط الكحول مع الماء ليس صعبًا على الإطلاق ..

وانطلق السيارة فى رحلة العودة .. أنا فى المقعد الخلفى مع (برنادت) أشرح لها كل شىء بالفرنسية ، بينما يثرثر (أشرف) مع أخى فى المقعد الأمامى ومن حين لآخر يهتف وهو ينظر لى فى المرآة :

ـ « النبى عربى يا أخ (علاء) يا خريج (الميزانسين) .. »

لسبب ما يصر على أن (ميزانسين) هو اسم مدرسة فرنسية .. فأقول له :

ـ « عليه الصلاة والسلام .. ثق من أننى لم أحك فضائحك بعد .. هذه لا تحكى إلا بالعربية .. »

ليل القاهرة .. الأضواء .. مسحة الحزن التى لا أفهمها .. متعبة هى القاهرة وحزينة ، لكنها برغم تعبها لم تنم .. ظلت ساهرة تنتظر طائرتى لتبتسم لى مرحبة ..

حسن .. سأحاول اختصار اللقاء .. هناك الكثير من العناق والأحضان والبكاء ..

أمى لا تتحرك تقريبًا ولم تعد ترى .. لكنها على الأقل بكامل وعيها وقد سرنى هذا كثيرًا ، وقد أحبت (برنادت) كما توقعت .. الصعوبات اللغوية جَمّةٌ ولا بد من مترجم .. لكن التفاهم واضح ..

فقط همست فى أذنها بالسر الذى لم تعرفه بعد ، فراحت تبكى ، وأعلنتها صاخبة مدوية .. (علاء) الطفل الذى كان يبلل كوافيله سيكون أبًا بعد ثمانية أشهر ..

الجانب الأنثوى فى استقبال (برنادت) قامت به زوجة أخى ، وقد أعدت لنا عشاء لا بأس به .. بينما راح أخى يحاول التفاهم مع (برنادت) بالإنجليزية .. وهى تتكلمها ، لكن إنجليزية أخى تحتاج إلى ما هو أكثر من فهم اللغة ..

الخلاصة أن اللقاء كان ناجحًا بحق .. وأدركت أن الأيام التالية ستشهد المزيد من الاندماج .. ستعرف (برنادت) الكثير عنا .. فقط أتمنى أن يكون لقائى أنا سهلاً .. لقاء الأب الكندى الثرى السمج .. رجل الأعمال الذى يشعر بأننى سلبته ابنته .. لكن هذا اللقاء لن يأتى إلا بعد عام من الآن .. ترى من يعيش إلى ذلك اليوم ؟

وفى غرفتى التى أعدتها الأسرة وأزالت كل ما يمت بصلة لى ، والتى قاموا ببياضها من جديد منذ أسبوعين ، قالت (برنادت) وهى تقف فى الشرفة ترمق الشارع المزدحم الصاخب :

- « أعتقد أننى سأحب بلدك .. أسرتك لطيفة فعلاً .. »

ولم أخبرها أننى لم أكن قلقًا بصدد رأيها فى أسرتى .. ما أقلقنى هو رأى أسرتى فيها ..

لكن النتيجة إيجابية ، ولو مت الآن سأموت سعيدًا ..

راحت (برنادت) تفرغ الحقائب .. توقفت أمام ملف كبير مزدحم بالأوراق وسألتنى :

ـ « ما هذا يا (علاء) ؟ لم أره فى أثناء إعداد الحقائب .. »

ومدت يدها تفتحه لكنى هرعت فأخذته منها ، وفتحت خزانة الثياب وتسلقت على الإفريز الخشبى الأسفل لأدسه فى أعلى موضع من الخزانة .. المكان الذى يفوح برائحة (النافتالين) حيث كنا نضع فيه بطاطين الشتاء حين يأتى الصيف ..

قلت وأنا أؤدى هذا العمل لاهثًا :

ـ « هذه أوراق تخص دراستى .. إنها مختلطة جدًّا ولو لمسها أحد لعجزت عن فهم حرف .. »

لم تعلق وواصلت البحث .. بينما نظرت أنا إلى أعلى ..

لهذا الموضع من الخزانة مفتاح .. أذكر هذا وإن كنت لا أعرف أين هو .. يجب أن أجد هذا المفتاح وأغلقه جيدًا ..

لا أتوقع أن تجرب الفضول هذه الليلة .. لكن ماذا عن غد وبعد غد ؟

ماذا عن اللحظة التى تدرك فيها أننى أتصرف بشكل غير مألوف ؟؟؟

* * *

الاثنين ٢٠ مايو :

لم أتمكن من الراحة إلا هذه اللحظة ، وقد دخلت (برنادت) فرأتنى منهمكًا فى الكتابة الآن .. تسألنى :

ـ « ماذا تفعله ؟ »

أقول لها :

ـ « أكتب خواطر هذه الفترة .. إنها مدهشة ولا أريد أن أنسى شيئًا .. »

بالطبع الخواطر بالعربية .. لا تفهم حرفًا .. هذه هى المزية الأهم فى الزوجة غير المصرية .. تمط رأسها محاولة فهم شىء .. بالنسبة لها من يكتب العربية هو إنسان فذ .. ثم تقرر أن تتركنى لخواطرى هذه ..

ماذا كنت أقول ؟ كنت أقول إن اليوم كان مرهقًا بحق ..

لابد من أن تستقبل عشرات الوجوه الباسمة التى لاتذكر أنك رأيتها من قبل .. هذا هو المهندس (عصام) حبيبك .. متى أحببته ؟ لا أذكر .. لا أذكر أننا جلسنا تحت شجرة نحفر

اسمينا على لحانها .. وهذه مدام (ثريا) .. صديقة (مى) .. هل عرفت ؟ طانط (إنصــاف) فى المستشفى .. يبدو أن الورم عاد .. ياللكارثة ! من هى طنط (إنصاف) ؟ بالطبع هى خالـة (مروان) .. لكن لا بد من أن نزورها اليوم بـالذات .. حـاملين الشيكولاته المقدسة إياها التى لا يمـرض الإنسـان أو يمـوت من دونها ..

وهناك من يصافحك فى حـرارة والعرق يغمـر جبهتـه .. يضغط على أسنانه ويزداد قسوة وأنت لا تفهم من هو .. ثم يردد فى هستيريا :

ـ « لا بد من أن تشرفنا بزيارة .. أقسم باللـه إن الوالـدة ستسعد .. نعم .. أؤكـد لك أن الوالـدة ستسـعد .. أنا أعـرف يقينًا أن الوالدة ستسـعد ! هـى قـالت لـى إنهـا تعتبرك أنت و(عبد المؤمن) ابنيها .. »

ويهبط فى الدرج وهو يصيح حتى ليوقظ الجيران من نومهم :

ـ « أؤكد لك أن الوالدة ستسعد ! »

فلو أضفنا لهذا أنه مراقب مالى وإدارى ، لفهمنا كيـف أننـى وزوجتى لن نسعد كثيرًا بهذه الزيـارة ، مهمـا كانـت سـعادة الوالدة ..

هناك صديق قديم عرف بقدومى ، وسررت حقًا بلقائه هو (مختار أبو سيف) .. إنه زميل دراسة مختص فى الطب النفسى حاليًا وهو بارع بحق كما يقولون .. يبدو أنه الطبيب الوحيد فى كليته الذى تنشر الدوريات العالمية بحوثه على الفور ، وقد بدا لى غريبًا أن هذا الصديق الذى عشت معه أتعس وأظرف أعوام المراهقة يمكن أن يكون مرموقًا .. سألته عن عيادته الخاصة فعرفت أنها فاشلة تمامًا .. هذا يؤكد ما قلته من أن نجاح العيادة لا يعتمد على مقدرتك العلمية ، ولكن على مقدرتك الاجتماعية .. ولهذا يذهب (مختار) إلى عيادته ليقضى يومه فى قراءة الدوريات على الإنترنت أو محاولة النجاة بحياة الأخت (لارا كروفت Lara Kroft) فى لعبة (المغيرة على المقابر) .. أو محاولة تحويل ملفات AVI إلى MPEG .. يقولون إن الطبيب الناجح فى عيادته منهك جسديًا ، والفاشل فى عيادته منهك نفسيًا .. لكن (مختار) بلغ درجة الرضا بلغتنا .. أو (النرفانا) بلغة البوذيين واليوجيين ..

تعرف (مختار) (برنادت) وأعتقد أنها ارتاحت له على الفور ، خاصة وأنه يجيد الفرنسية .. لكنه ـ كأى شىء جيد ـ لا يبقى طويلاً .. إذ سرعان ما رحل تاركًا إيانا بين براثن المراقبين الماليين وطانط (فيفى) وطانط (عزيزة) ..

هكذا تنتهى من كل هذه الواجبات شاعرًا بأنك حطام .. دعك من أطفال الأسرة الذين اعتبروا (برنادت) فقرة من فقرات السيرك .. والفتيات خريجات اللغة الفرنسية اللاتى وجدن فيها ضالتهن .. كل هذا والرقيقة البسيطة تبتسم فى رقة طيلة الوقت .. صحيح أنها كانت تعانى عذابًا مقيمًا خاصة مع الحمل الذى يجعل الدوار عادة .. لكنها تماسكت .. فقط دخلت الحمام مرتين لتفرغ معدتها .. فكما قلت يعتبر جسمها الجنين غزوًا أجنبيًا يريد التخلص منه ، إلى أن تتعود بعد الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل .. أضف لهذا (إسهال المسافر) الذى يصيب كل غربى يزور قطرًا شرقيًا .. وهو لا يقتلهم جميعًا للأسف .. هناك ناجون من حين لآخر ، لكنه يسبب متاعب لا حصر لها .. والكارثة هنا أننى لا أجرؤ على إعطائها أى دواء فى هذه الأشهر الخطرة من الحمل ..

فرغت من هذا كله فجلست أرتب أفكارى ..

ليست لدى فكرة واضحة عما يجب عمله .. لكنى أدرك يقينًا أننى أحمل واجبًا .. إرثًا .. مهمة كلفت بها وأنا فى ذلك الكهف البارد فى (كييو) .. وليس لى أن أتخلى عن هذه المسئولية ..

جلست أقرأ الأوراق المكتوبة بالبولندية .. لسبب ما صرت أجيد البولندية تمامًا .. لا أعرف السبب ولا يخيفني هذا .. يبدو أن اللمسة التي منحنيها (كومارسكي) هي أنه جعلني أشعر بأن هذا طبيعي جدًا ..

إن الخطة بسيطة .. الإعداد سهل ..

الكارثة الحقيقية هي أن تبدأ العمل فعلاً ..

هذه نقاط يمكن دراستها على مهل ..

ما يضايقني في الموضوع هو أن معي زوجتي الأجنبية .. وهذه الزوجة لابد من أن ترى مصر ، وأن تقضي نوعًا من شهر العسل هنا .. لا وقت لدي لهذا .. تكفي رحلة إلى الأقصر وأسوان كي تهدم جدولي الزمني ، فماذا عن (سيناء) و(الإسكندرية) والبحر الأحمر ؟

سأحاول إنهاء هذه الأمور سريعًا لأتفرغ للعمل ..

* * *

الثلاثاء ٢٨ مايو :

بالطبع وقعت (برنادت) فى غرام مصر .. لا أرى فى هذا معجزة ما .. إن من لا تفتنه مصر لا يمكن أن يفتنه أى شىء فى العالم .. تكلم عن الفراعنة ولسوف تجد ما يسرك .. تحب الآثار الإسلامية ؟ هناك الكثير .. آثار قبطية من عصور الاستشهاد ؟ مرحبًا بك .. وماذا عن الرومان واليونان ؟ تحب الريف والخضرة ؟ هنا مرادك .. تبغى الغطس والشعاب المرجانية ؟ أم تحب الصحراء ؟ أم أنك من الطراز الكئيب الذى يمقت الحياة والبشر ؟ لا تقلق .. إن كثيرين قبلك قفزوا فى النيل وأحبوا ذلك ..

نعم .. تحدث عن كل شىء من فضلك لكن لا تتحدث عن افتتان (برنادت) بمصر كأنها ابتكرت شيئًا جديدًا ..

حين عدنا إلى الدار ، تركتها للمرة الأولى منذ عشرة أيام ، وقلت إننى سأقوم بإنهاء بعض الأعمال .. تركتها مع أمى فى الصالة فى ذلك المشهد الذى طالما حلمت به فى (سافارى) : امرأتان تجلسان أمام التلفزيون ، بينما أمى

تعد القهوة على (السبرتاية) إياها .. صحيح أن حركاتها صارت ثقيلة جدًا لكنها تعرف كيف تعنى بأمرها ، وبرغم أنها كفيفة تقريبًا ، فهى تذكر مكان كل شىء فى منزلها الذى نظفته ١٥٠٠٠ مرة من قبل .. وبدا لى أنهما قادرتان على التفاهم .. إن (برنادت) تريد أن تسعدنى ، ولسوف تعنى بوالدتى جيدًا .. والعكس صحيح .. ثم إن تحرش الحموات لن يكون سهلاً بالفرنسية ..

* * *

قال لى (أشرف) وهو يحاول جاهدًا ضخ الوقود إلى المحرك (لأن البيك مسدود كما قال) :

ـ « العنوان فى (حلوان) .. هل أنت واثق من قرارك ؟ »

نظرت من النافذة وقلت فى غموض :

ـ « أنا واثق .. »

ـ « هذه المشروعات تفشل دائمًا صدقنى .. لا أعتقد أن أى مشروع ينجح ما لم يتعلق بالطعام .. »

ـ « سأجرب .. »

وكان (حجازى) السمسار إسكافيًا له ورشة صغيرة متسخة مسودة الجدران .. وقد جلس غارسًا كعب حذاء فى صدره حين رآنا ، فهتف فى حماسة تدعونا للدخول ، وصفع الصبى الأبله النائم جواره على قذاله يأمره بأن يعد شايًا للبكوات ، لكننا اعتذرنا بأننا متعجلون .. هكذا ألقى بما فى يده ومسح يديه فى منشفة زادتهما اتساخًا ، ولحق بنا ليجلس فى المقعد الخلفى للسيارة وانطلقنا ..

وراح يصدر التعليمات لـ (أشرف) من مكانه :

- « أول منحنى على اليمين (بلاقافية) .. يسار .. يمين .. يمين .. خذ الحذر .. هنا بالوعة مفتوحة .. نعم .. (الله ينور عليك) .. هذا الشارع .. هل ترى هذه البناية المهدمة ؟ أمامها شجرة عجوز (بلاقافية) .. نعم .. هنا .. قف يا بك .. »

وترجلنا من السيارة .. ووقفنا فى هذا المكان القفر .. بالضبط كما أردت وتمنيت .. كانت هناك ثلاث قطع من الأرض لم يتم بناؤها بعد ولن يتم أبدًا ، لأن تنازع الورثة سيبقى إلى يوم الدين .. هناك كومة من القمامة كأنها جبل صغير .. هناك بركة مياه لا أعرف مصدرها لكنها هناك تشرب منها بعض القطط ..

فتح السمسار باب البناية بمفتاح كان معه ، فأعاد (أشرف) السؤال :

ـ « هل أنت متأكد من أن أحدًا لن يقيم هنا ؟ »

قال فى ضيق كمن أهينت كرامته :

ـ « لا أحد يا بك .. البناية ملكنا (بلاقافية) .. وليس بيننا من ينوى السكنى فيها .. »

ثم تقدمنا فى درج متآكل عتيق .. وصعدنا خلفه حتى لم يعد هناك من مزيد .. ثمّة شقة مغلقة فى الطابق العلوى تطل على السطح الخالى .. برغم كل شىء أشعر أن هذا المكان بهيج .. إنه موحش إلى درجة تجعله ساحرًا ..

فتح الباب فطالعتنى الشقة الكلبية الخالية .. لابد أنها رأت أيامًا أفضل فيما مضى .. لكنها واسعة .. وحين تفتح نوافذها يطالعك فراغ مريح فى الجهات الأربع ..

ـ « ستجد هنا أن (الطراوة ترد الروح) .. »

هززت رأسى بمعنى أننى موافق ، فناولنى المفتاح والعقد .. طبعًا يفترض النصاب أن الشقة مفروشة ؛ لأن فيها مقعدًا محطمًا ومرآة قديمة لم يتبق شىء من سطحها الفضى ..

- « قلت تنوى استخدامه فى ماذا بالضبط ؟ »

فى صبر قلت ما قلته ألف مرة على ما أظن :

- « مشروع ما.. يشبه ورشة لتجميع أجهزة الكمبيوتر وبيعها .. »

- « وتريد هذا المكان القفر ؟ كنت أحسب تجارة الكمبيوتر تحتاج (بلاقافية) إلى مكان نظيف فى وسط البلد .. »

قلت فى خبث بلهجة من لا يريد التفسير أكثر :

- « ليس لدى تصريح .. هذه الأمور تحتاج إلى طن من الأوراق الإدارية .. ثم المصنفات والضرائب .. إن التعامل معهم مشكلة .. أنت تفهم هذه الأمور .. »

قال مضيقًا عينيه فى ذكاء بلهجة من عرك الحياة وعركته :

- « نعم .. نعم .. أخو زوجتى الثانية (توحة) يتاجر فى المخدرات .. وهو يرى الأمرين من الحكومة .. لكن أكل العيـ ... »

فى ذُعرٍ هتف (أشرف) :

- « لايتكلم عن المخدرات يا أحمق .. يتكلم عن الكمبيوتر .. هو بحاجة إلى مكان منعزل لكن الأمر لم يصل لهذا الحد .. »

في طريق العودة ونحن نحمل السمسار إلى ورشته ، سألنى (أشرف) وهو شارد الذهن :

ـ « منذ متى تهتم بالكمبيوتر ؟ معلوماتى أنك أجهل من دابة فى هذا الصدد .. »

ـ « لا تعرف كم من التغيرات طرأت على هناك .. لكن لابد للمرء من ترتيب حياته فى مصر لو عاد يومًا ما .. من العسير أن يفكر المرء فى نجاح عيادة يبدأ العمل فيها فى هذه السن .. لابد من مشروع بعيد عن الطب ، ثم إننى أرجو ألا تعرف زوجتى شيئًا عن هذا الموضوع .. »

ألقى بلفافة تبغه من النافذة وقال :

ـ « أما هذا فلاشك فيه .. إلى أن أعرف كيف أقول هذا كله بالفرنسية سيكون مشروعك قد فشل وانتهى الأمر .. »

ولذت بالصمت .. كنت أفضل أن يتم الأمر دون شهود ، لكن كيف لمثلى ـ وأنا نصف غريب ـ أن أجد بيتًا مقفرًا من دون سمسار ، وكيف أجد سمسارًا من دون الاستعانة بصديق ؟ المهم أن ألتزم السرية وألا يعرف أحد ما يدور فى هذا البيت حقًا ..

ضغط (أشرف) على دواسة البنزين فى توحش ، كى يسلك (البيك) كما قال ، والذى لا أعرف ما هو ، وسألنى ونحن عائدان إلى (شبرا) :

ــ « سوف تحتاج إلى سيارة .. إن المشوار شاق حقًا .. »

كانت القيادة مشكلة بالنسبة لى ، لكننى قررت أن أجيدها .. ربما أستطيع الحصول على رخصة قيادة بسرعة .. رباه ! إن مخى يوشك على الانفجار من كثرة ما يجب عمله !

أما الخطوة الأهم فهى المرور على بعض المتاجر التى تتعامل مع الإلكترونيات .. هناك دوائر لابد من البحث عنها .. أريد ثلاجة أفقية صغيرة و.. يجب أن أكتب قائمة بهذه الأشياء ..

* * *

الأربعاء ٢٩ مايو :

قضيت ست ساعات كاملة أقوم بتركيب ما اشتريت .. عملية معقدة ، لكن الدوائر والتوصيلات كانت فى ذهنى بوضوح تام .. كأنما كنت أمارس هذا العمل منذ نعومة أظفارى ..

كنت قد ابتعت ثلاجة أفقية ، وقمت بنقلها مع ما ابتعت من إلكترونيات فى سيارة واحدة .. وبمجرد أن صرت وحدى فتحت باب الشقة لتهب منه أنسام أبدية لا أدرى من أين تأتى .. أمامى السطح الخالى وذلك الشعور البهيج بالراحة .. الشعور بأن البناية كلها ملكى ..

برغم هذا أنا قلق بصدد حرارة الجو .. هذا المكان معتدل الجو ، لكن ليس (مايو) هو أفضل شهر يمكن فيه إجراء تجارب كهذه .. ورحت آمل أن يكون ارتفاع الشقة مناسباً ..

« الملاحظة الثانية المهمة هى أن هذه الطاقة تكون فى أعلى نشاط لها حين توضع فى حرارة منخفضة أو فى موضع مرتفع ، لا أعرف تفسير ذلك لكن هذه ملاحظاتى على كل حال .. كانت الطاقة تتوهج إذا ما جمعتها من مرضى الطابق الثانى أكثر منها مع مرضى الطابق الأرضى .. »

فرغتَ من كل شىء وكان الظلام قد بدأ يقـترب .. ألقيت نظرة أخيرة على المكان .. مئات الأسلاك والدوائـر ، وألـف وصلة تم تثبيتها بالشريط الكهربى العـازل .. حين أنظر إلـى هذا كله أكتشف الحقيقة المروعة : ليس لى أدنى علم بهذا الذى قمت به .. ولولم يكن ميراث (كومارسكى) فى عروقى لمـا تمكنت مـن عمـل وصلـة واحـدة .. أنـت تفهـم الأمـر .. لو نظرت إلى الرسـم التفصيلى الدقيق لجهاز إلكترونى ، ورأيت تلـك المتاهـات التـى لا تعرف أبدًا مـن أيـن تبـدأ ولا أيـن تنتهى .. ولو تذكرت أن التعليمـات الإرشـادية كـانت بالبولنديـة ، لأدركت كم الذهول الذى شعرت به وأنا أنظر إلـى مـا قمت بـه .. أنا عبقرى .. لا .. (كومارسكى) عبقرى ..

لقد أوشكت إعدادات الحفل أن تكتمل فلم يبق إلا المدعوون ..

* * *

وهنا مزية أخرى للزوجـة غير الفضولية .. إنهـا لا تكثر من الأسئلة متى شعرت بأنك لا تشتهى الثرثرة .. مـا سر التـأخير ؟ إنهـا الإجراءات ، وهذه مصر يا صغيرة .. أنت فى بلد الكاتب الجالس القرفصـاء ، حيث لا بد للمرء من ألف ورقة يثبت بهـا أنه على قيد الحياة ، وألف ورقة أخرى يثبت بها أنه مات ..

أعدت لى طعام الغداء الذى صار عشاء الآن ، وكانت قد فهمت كل مجاهل المنزل .. تعرف أين يخبئون السكر والشاى والبن .. وتعرف أن علبة الثقاب توضع فوق الثلاجة ، والملاعق فى درج (البوفيه) العتيق فى الصالة ..

قالت لى وأنا أملأ فمى بالمكرونة :

ـ « حالة والدتك الصحية غير مطمئنة .. قياسات السكر فى الدم كلها تفوق المعدل .. لقد زدت لها جرعة الإنسولين قليلاً .. »

ـ « م م م .. مما ممين .. ممابك ! »

ـ « هه ؟ »

ازدردت ما فى فمى وعدت أكرر الجملة بوضوح أكثر :

ـ « افعلى ما تريدين فأنا أثق بك .. »

ـ « وحالة عينيها .. فى الحقيقة هى تستأهل عناية أكثر ما دمنا هنا .. أقترح أن تتفرغ لها بضعة أيام .. »

ماذا ؟ وقتى لا يسمح يا فتاتى .. سوف نعود خلال ثلاثة أسابيع إلى (الكاميرون) .. إن حالة والدتى مستقرة .. سيئة لكنها لن تتحسن ولن تتدهور .. لن تجرى الجراحة

ابدًا .. هى لا تريد .. أكره من يقول لى ما يجب أن افعل .. من أنت كى تزعمى فهم تفاصيل عشنا فيها نحن عدة أعوام ؟

لكنى لم أرد أن أفسد الأمور فقلت وأنا أمضغ المكرونة دون أن أتذوقها :

ـ « ليكن .. أى شىء .. فقط أعطينى مهلة أفرغ فيها من هذه الأوراق .. »

نظرت لى فى شرود ولم تبد مقتنعة جدًا ..

ترى متى ستقول لى : أنت تغيرت يا (علاء) ؟ ستقولها حتمًا .. فقط أنت تقولها متأخرة ..



* * *

الخميس ٣٠ مايو :

كان يقول :

«ثم بدأت التجريب على المحتضرين من البشر فى وحدة (سافارى-١) .. ولاحظت ملاحظة عجيبة .. إن الاحتضار فى سلام ومن دون ألم لا يعطينى من هذه الطاقة القدر الكافى .. يمكن أن أقرب المشهد لذهنك باعتصار الليمونة .. كلما ضغطت أكثر كلما أعطتك عصيراً أكثر .. »

لقد صرت أحفظ كل حرف فى هذا الخطاب ، والكابوس الذى كان يطاردنى هو أن يقع بين يدى (برنادت) .. أذكر يوم عدت لها من (كليمنجارو) محطمًا متفسخ الأعضاء بعد ما ودعت (تارو) و(ماسومو) .. سألتنى عما حَلَّ بى هناك فقلت لها فى غموض : مات الرجل وحده فى الجبل .. سألتنى عن كل هذه الأوراق التى معى ، فقلت إننى لم أرد أن أتركها .. بالتأكيد سوف ترغب أسرة البائس فى أن تجدها .. سأرسلها لآله بمجرد أن أجدهم ..

نفس الشىء قلته للمدير ، وكان غامضًا فى قبول ما قلت .. لكنه يفهم وأنا أفهم .. لقد صارت اللعبة مكشوفة ، ونحن

نتعامل بطريقة (نحن ـ نعرف ـ ما ـ هنالك ـ لكننا ـ لن ـ نتكلم ـ بصوت ـ عال) .. وهى طريقة عتيقة ..

ذات مرة كنت أنقب فى درج أخى ووجدت مجموعة من الخطابات الغرامية الحارة جدًا ، كتبتها له فتاة تدعى (مى) .. وكنت مراهقًا سخيفًا لهذا راق لى ما فى الأمر من دعابة .. أخذت الخطابات وأخفيتها فى موضع آخر .. الآن صرنا فى وضع فريد : أخى يعرف أننى سارق الخطابات لكنه لا يجرؤ على اتهامى ، لأنه لو اتهمنى لاعترف بأن هناك خطابات .. وأنا ملاك لا يعرف شيئًا .. يدنو منى وينظر فى عينى بشك قاتل ، ثم يسألنى : هل وجدت شيئًا وأخفيته ؟ فأقول ببراءة : أى شىء ؟ ماذا تعنى ؟ يقول لى : الشىء الذى أخفيته ! فأقول : لو قلت لى ما هو لفكرت فى الأمر .. كيف أتذكر إخفاء شىء إن لم أعرف ما هو ؟!

هكذا هو يعرف أننى أعرف أنه يعرف أننى وجدت هذه الخطابات .. لكن لا يجرؤ أحدنا على الكلام ، ويكتفى بأن يوجه لى نظرة من طراز (صبرًا ـ أيها ـ النصاب ـ سأجد ـ لك ـ عقابًا ـ فى ـ شأن ـ آخر) ..

كنت الآن أقف جوار (المفاعل) المكتمل تمامًا .. مجهود يفوق الوصف بالنسبة لأننى قمت به فى يومين أو أقل ..

صحيح أنه كان أكثر بساطة وأكثر خرقًا مما قام به (كومارسكى) لكنه عمل فذ طبعًا .. النقطة هنا هى أن أكثر جهد (كومارسكى) كان منصبًا على إعداد سبل الحياة فى الجبل .. وأنا هنا فى مدينة .. كما أننى قمت بتجميع ما قام به .. عندما يقوم الكهربائى بتجميع كشاف من (النيون) فإنه ليس مطالبًا باكتشاف الكهرباء من جديد ، وإنما هو يبدأ من حيث انتهت أعوام من البحث العلمى ..

بدأت تجاربى بقط .. نعم .. قط من القطط التى تقف على حافة البركة لتشرب .. احتجت إلى عدة محاولات خرقاء حتى تمكنت من إلقاء صندوق ورقى عليه .. ونجحت فى لف الصندوق بملاءة ثم حملته إلى معملى العجيب .. حسن يا رفاق .. لكم أن تراهنوا على أن العملية كانت شاقة .. فالوغد يتعامل كأنه نمر أو خنزير برى .. وقد مزق يدى تمامًا ، ولحسن الحظ أننى تلقيت تطعيم التيتانوس منذ وقت قريب .. فى النهاية تمكنت من تقييده .. بعدها قمت بتثبيت الأسلاك إلى جسده متصلة بكرة زجاجية .. هذه الكرة التى تختزن (الظاهرة) ..

لن أذكر تفاصيل موته .. فقط أقول إنه كان موتًا شنيعًا بطيئًا .. لا أعتقد أنك تعترض إلى هذا الحد على البحث العلمى .. أنا متوحش ؟ لا أظن .. كم من كلاب مزق (بافلوف Pavlov)

بطونها وهى حية ، وكم من أرانب ماتت وهى تسعل دمًا مع (روبرت كوخ Koch) .. لو لم تمت هذه الحيوانات لما عرفنا شيئًا عن الانعكاس الشرطى وفسيولوجيا الهضم ولا عن الدرن الرئوى ..

فى النهاية قمت بختم طرف الكرة الزجاجية وأوصلتها بالأسلاك اللازمة ، ثم وضعتها فى المفاعل .. الثلاجة الأفقية إياها ..

ثم تخلصت من الجثة ..

يجب هنا أن أرتب أفكارى .. لا قيمة على الإطلاق لتكرار ما قام به (كومارسكى) ، بل يجب أن أبدأ من حيث انتهى بالضبط .. هو استخلص (الظاهرة) واستعملها فى توليد الكهرباء والإضاءة .. هو لم يجرب استخلاص (الظاهرة) من المصريين .. لم يجربها مع امرأة حامل .. لم يجربها مع طفل حديث الولادة .. لم يحاول أن يجرب إمكانات أخرى لهذه (الظاهرة) ..

أعرف أنى سأجرب حتى النهاية .. وحين أشعر بقرب وفاتى سأنقل خبراتى إلى طبيب شاب آخر .. هكذا تتحرك الوصية عبر الأجيال .. وهكذا .. وربما ...

من يدرى ؟ لو كنت كاتب خيال علمى ، لتصورت مستقبلاً تمشى فيه السيارات وتحلق الطائرات بوساطة (الظاهرة) .. هذا يستلزم منظرًا آخر أغرب .. مساحات شاسعة مخصصة للتعذيب لانتزاع الطاقة من المحتضرين .. أتخيل سهلاً ممتدًا تمارس فيه أنواع التعذيب ، والبشر معلقون على أوتاد ينزفون ، والأسلاك تتدلى منهم نحو البلورات .. ما أجمله من منظر ! لوحة سريالية رائعة ، أو هو مشهد حلم به القادة الرومان وهم يصلبون (سبارتاكوس Spartacus) ورفاقه على طول الطريق من شط (برنديزى) إلى (روما) .. يا للخسارة .. لم يكن (كومارسكى) موجودًا وقتها ليحصد كل هذه الطاقة ! طبعًا سيكون هؤلاء المعذبون من المساجين أو الشعوب التى لم تعد ذات جدوى ..

إننى أتغير .. لكنى لست واثقًا إن كان هذا لأسوأ أم أفضل .. تلك مسألة نسبية ..

* * *



الجمعة ٣١ مايو :

بدأت الكرات تزداد .. لدى الآن خمس منها ..

عدت للبيت فى ساعة متأخرة لتخبرنى أمى أن عددًا من الأصدقاء مرّ على فلم يجدنى .. هؤلاء الذين عرفتهم يومًا منذ عشر سنوات ثم قرروا أن الوقت مناسب لاستعادة الود ..

سألتها فى سخرية جانبية :

- « وهل وجدنى أحدهم فى البيت ؟ »

أمى لاتفهم المزاح وهذا فى حد ذاته يعطى إمكانات هائلة للمزاح .. لهذا هتفتْ فى رعب :

- « وكيف يقابلونك وأنت كنت بالخارج ؟ »

ثم انفجرت فى ضحك عصبى قصير وقد فهمت أننى أداعبها ، وبعد قليل جاءت زوجة أخى من المطبخ وقد لوثت بالسمن يديها حتى المعصمين ، ولاأعرف بالطبع نوع العشاء الذى يلوث المعصمين بالسمن ، وقالت فى لوم ضاحك :

- « مشغول جدًا .. مشغول بشكل لايوصف .. لاأعرف إن كنت انتهيت من إدارة أملاكك أم لا .. »

وخلفها ظهرت (برنادت) وكان من الواضح أنها تحمل أسئلة مماثلة .. قالت لى بالفرنسية :

ـ « أنا معها طيلة اليوم .. لقد صرنا صديقتين حميمتين .. تعلمت هى من الفرنسية قدرًا ، وتعلمت أنا من العربية قدرًا .. هكذا يمكننا أن نتفاهم للأبد .. »

طبعًا أنا لا أحب زوجة أخى كثيرًا .. أجدها مشاكسة مولعة بالتحدى والصراع .. ولن يستغرق الأمر الكثير من الوقت حتى تبدأ الشجار مع (سلفتها) التى هى (برنادت) .. لكن العلاقات حتى هذه اللحظة سطحية .. أجمل ما فيها أنها سطحية كعلاقتك بالكواء على ناصية الشارع .. لا يمكن أن تزداد عمقًا أو تسوء ..

ما يهمنى فى الموضوع هو أننى صرت مريبًا .. الرجل الذى يبقى فى الخارج طيلة اليوم بعد عودته من الخارج ، لا بد أن يكون مريبًا .. والأسوأ هو أننى ألعب دور الدكتور (فرانكنشتاين) الذى يملك مختبرًا غريبًا يمارس فيه تجارب مشبوهة ما .. لكننى أعرف حقيقة واحدة : أنا مرغم على ما أقوم به .. دعك من أننى لن أجد الفرصة أبدًا للقيام بهذا الذى أقوم به فى (الكاميرون) .. لا يوجد مكان خال أنفرد فيه ، وعيون الجميع على ..

وسألنى أخى بشكل عابر :

- « هل توجد مشاكل ما ؟ نكاد لا نراك .. »

قلت فى غموض :

- « لدى بعض المشاكل .. بعض الجيوب تركتها ، وأريد أن أغلقها قبل أن أعود .. »

- « لكن لماذا لا تصحب عروسك معك ؟ »

قلت بلهجة من لا يريد أن يفتح معه الموضوع أكثر من هذا :

- « (برنادت) عاقلة جدًا وتعرف متى تتركنى وحدى .. لا تقلق بهذا الصدد .. »

يجب أن أحترس .. الأمر قد صار خطرًا بالفعل ...

* * *

السبت ٦ يونيو :

اليوم حدث أغرب شيء في حياتي .. الأمر الذي يشعرني بما يحب رجل الشارع أن يقوله : الدنيا صغيرة .. نحن قطع من الشطرنج تعتقد أنها ذات إرادة كاملة ، لكنها تتنقل هنا وهناك غير عالمة أنها تنفذ خطة أكبر ..

مثلاً خذ عندك المشوار الطويل المرهق الذى مشيته عاجزًا عن العثور على سيارة أجرة .. ثم خذ عندك ركوبى مترو الأنفاق .. خذ عندك الفتاة التى دخلت قبل أن ينغلق الباب وهى تحمل حقيبة مكتنزة ، ونظارة سوداء على عينيها تعطيها الكثير من التظاهر .. إن إنسانًا اختفى ثلث وجهه يتحول إلى كتلة من الغموض ..

كانت العربة كتلة من العجين البشرى المختلط برائحة العرق ، والأنفاس التى أطفأت لفافة تبغها قبل النزول إلى المحطة .. وتذكرت باسمًا تشبيه العبقرى (محمد عفيفى) : ليس المكان علبة سردين .. بل هو قالب عجوة مكبوس .. لأنه لا يحقق التلاصق فقط بل التلاحم كذلك ! وإلا فلماذا أجد ذراع هذا الطالب تخرج من تحت إبطى ؟ ولماذا لا أجد ساقى اليسرى ؟

كانت واقفة فى الركن وقد منحتها هيبة الأنوثة بعض الفراغ حولها .. بضعة ملليمترات لا أكثر ، لكنها على الأقل تجعلها مدركة تمامًا لهالتها الذاتية ..

هنا التقت عينانا .. أعنى أن عينى التقتا بنظارتها .. كنت أعرف من البداية أننى أعرفها تمامًا ..

الآن أتأكد من هذا ، وقد غزت هذه البسمة وجهها .. وفى اللحظة التالية نطقت اسمى بشفتيها من دون صوت ، ونطقت اسمها بشفتى من دون صوت :

ـ « (علاء) ؟ »

ـ « (نسرين) ؟ »

لماذا لا تموت الذكريات القديمة ؟ المستشفى العتيق المتهالك .. طبيبة التخدير الحسناء التى تخاف كل شىء .. الفتاة التى وجدت نفسك فى أن تحميها .. الزيارة مع الوالدة وأخى .. البونبون المشحم الذى يلتصق باليد ، والأب المتشكك الذى يملك يقينًا واحدًا : أنت لا مستقبل لك ..

(نسرين) .. الحب القديم .. والسبب رقم واحد فى سلسلة أسباب أدت بك إلى الفرار .. إلى حيث تجسر النسور .. إلى حيث يصير (شلبى) رفيقك ، وقبائل (الباتتو) مرضاك ، واللغة الفرنسية هى اللغة التى تتكلم بها فى نومك ..

كانت مرتبكة ، وحين رفعت يدها اليمنى إلى شعرها لم أر أى قيد ذهبى .. ثم تماسكت باليد اليسرى فى العارضة فلم أر أى قيد كذلك .. لم تتزوج ولم تخطب ..

شققت ملحمة الأجساد والعرق حتى دنوت منها :

ـ « أية محطة ؟ »

ـ « (حلوان) .. »

وهذه صدفة أخرى غريبة ..

حين انفتح الباب ليتقيأ المترو حمولته ، كنا نمشى معًا كأننا ركبنا معًا .. لا أعرف لماذا ولا كيف ، لكن شيئًا ما قال لى إنها تبحث عنى .. وسرنى هذا ..

أمام المحطة كان هناك حادث طريق ، وكان هناك زحام مروع .. الناس الملتفون ليسعدوا بخبر أنهم ما زالوا أحياء .. رأيت الدماء على الأرض وسمعت الصراخ .. غطت وجهها بيدها حتى لا ترى وهمست : يا ساتر يا رب !

لكنى كنت أرمق المشهد فى نهم .. لو كانت الضحية حية وتتألم فمن الخسارة أن تموت سدى .. إن (الظاهرة) تنزف منها دون أن تكون عندى فرصة جمعها ..

بعد خطوات من المحطة كنت قد عرفت أن (نسرين) لم تتزوج قط .. غريب هذا لأننى أعتقد أنها فى الثانية والثلاثين

من العمر .. يبدو أننى لم أكن الضحية الأخيرة لأبيها فهو من الطراز الذى يتسلى بطرد الخطاب .. الأب الذى يعرف قيمة ابنته أكثر من اللازم ، ويؤمن بأن زواجها صفقة خاسرة .. أن يعلمها ويطعمها ويعطيها كل شىء ، فقط ليأخذها شاب رقيع .. من ثم تنسى أباها للأبد .. ويبدو أنه ظل ينتظر حتى يتقدم (صلاح الدين الأيوبى) أو - على أقل تقدير - وزير خارجية (بوليفيا) لابنته .. فلما لم يحدث هذا قرر أن الحكمة المثلى هى (دع العسل فى جراره .. إلى أن يعرف مقداره ..)

كانت هشة حزينة .. وقد بدا لى كأنما هى بحاجة إلى أى ظل من الماضى يذكرها بأيام العز ..

سألتنى كثيرًا عن زوجتى ، وعن تجربة الزواج بأجنبية .. كانت تتمنى أن تجدنى تعسًا ، ولسبب ما لم أخبرها بالحقيقة : إننى بالفعل سعيد جدًا .. لقد أعطيتها ردودًا رمادية توحى بالغموض .. توحى بأننى قد أكون سعيدًا كالأرانب ، وقد أكون تعيسًا كثور معصوب العينين يدير ساقية ماء ..

فى النهاية أخرجت ورقة وكتبت عليها رقم هاتف بيتنا ، وطلبت منها أن تطلبنى فى أى وقت .. ثم افترقنا ...

★ ★ ★

فى العاشرة مساء دق جرس الهاتف .. كنت على مائدة العشاء ، فنادانى أخى - كان وزوجته عندنا اليوم - كى أرد .. فما إن رفعت السماعة حتى وجدتها هى .. (نسرين) ..

شعرت بالحرج نوعًا خاصة وأن (برنادت) فى الصالـة ، لكنى كنت مهذبًا ورحت أستمع بهدوء .. برزانة ..

الحقيقة أنها كانت تقول الكثير من الكلام الفارغ .. ثرثارة جدًا ، ولا أزعم هنا أنها كانت تريد استعادتى .. لا .. هى تريد شيئًا لا تعرف ما هو ولا تستطيع شرحه لو طلب منها ذلك .. أعرف هذه المشاعر .. فقط تبقى خطوط اتصال مفتوحة مع الماضى .. وتريد أن تشعر بأنها ما زالت ساحرة وأن الأثر الذى تركته فى نفسى يومًا ما لم يضعف بعد .. حسن .. من ناحية الجمال لا أنكر أنها ما زالت ساحرة .. فهى ليست فى السبعين من العمر .. لكنى بالفعل أحب (برنادت) .. أحبها كثيرًا وأشعر بأن ما مر بى فى حياتى من قبلها كان هراء ..

طالت المحادثة نحو ساعة .. وقرب نهايتها أعطتنى رقم هاتفها .. ودخلت (برنادت) لترى ما هنالك ، فرفعت كفى بمعنى ألا تقاطعنى الآن .. هزت رأسها وجلست على الأريكة تقلب بعض المجلات النسائية .. هى لا تفهم العربية لكنها تعرف منها قدرًا خطرًا .. الخطر فى الموضوع أننى لا أعرف مقدار ما تعرف بالضبط ..

انتهت المكالمة ، فسألتنى :

ـ « صديق قديم ؟ »

ـ « شىء من هذا القبيل .. »

★ ★ ★

الاثنين ٣ يونيو :

صار يومى ذا نظام لايتغير .. الخروج صباحًا إلى العمل .. أقصد ذلك المختبر المرتجل فى (حلوان) .. والطريف هنا أننى صرت أدون ملاحظاتى بالبولندية .. ماذا يحدث لى ؟ المخيف فى الأمر هو أننى لست خائفًا .. لا أرى فى هذا غرابة ..

يجب أن أقول هنا إننى صرت متى فرغت من عملى أقابل (نسرين) .. إنها تعمل هنا .. هناك مستشفى خاص صغير اسمه (الروضة) صاحبه جراح يختصها بتخدير حالاته .. وبما أنها بحاجة إلى أن تنفق على نفسها فإنها تمضى أكثر وقتها فى (حلوان) .. إنها لصدفة غريبة ..

كنا نجلس فى أى مكان .. أو نمشى معًا نتكلم .. وببطء بدأت الفتاة تشعر بأننا ننتمى معًا إلى (نادى الخاسرين) .. كلانا محبط بشكل ما ، وكلانا لم يجد السعادة بعد مرور هذه الأعوام .. عندها يلتقى الجنديان العائدان من الميدان بعد ما هزما فى الحرب .. عندها يبعث حب الماضى ..

فكرة رومانسية عذبة .. وكانت تروق لى بشدة فى الماضى .. المشكلة هنا أنها خطأ على طول الخط .. على الأقل بالنسبة لى ..

لكن ـ قل لى من فضلك ـ ما السبب الذى يجعلنى ألعب بالضبط الدور الذى تتمنى أن ترانى فيه ؟

ما سر هذه الكلمات الغامضة التى أقولها وتوحى بأنها على حق ؟ كلانا خسر حربه الخاصة ، وعلينا أن نجد بعضنا .. علينا أن نخوض حربًا واحدة معًا .. والأهم أنها تحسبنى آتى إلى حلوان من أجلها فقط ..

وفى نهاية اللقاء أقول لها وأنا أنظر لعينيها فى حزن :

ـ « الآن سأتركك .. يجب أن أعود لها .. »

وأضغط على كلمة (لها) بما قد يعنى (للعينة) أو (للحدأة) أو (لمصاصة الدماء) ..

فتشهق فى لوعة ، وتغطى شفتيها ..

ثم أستقل المترو عائدًا .. وهنا تخطر لى فكرة رهيبة ..

إننى أعرف لماذا ألعب هذا الدور .. لست نذلاً ولا (فاتن نساء) لا سمح الله .. إننى أفكر فى شىء آخر .. شىء

يتعلق بالكرات الزجاجية .. ولماذا هى بالذات ؟ ربما لأننى أجد فى نفسى رغبة خفية فى الانتقام .. المهانة التى شعرت بها وأنا أغادر دارها شبه مطرود .. وأمى تقول لى ما تقوله أية أم أخرى : غدًا أزوجك من هى خير منها ألف مرة .. لكنى لم أكن أريد خيرًا منها .. كنت أريدها هى ..

ستكون (نسرين) لى للأبد .. لكن فى صورة بلورة زجاجية غامضة ملقاة فى المفاعل .. إننى أقاوم حتى هذه اللحظة ، لكنى أعرف كيف سينتهى الأمر .. إن المعركة بين الحمل والأسد محسومة .. الحمل هو ما بقى منى ، والأسد هو ذلك الهاجس الذى يسيطر على كل خلية من خلاياى الآن ..

أكره أن أعترف لنفسى بهذا ، لكنه حقيقى وأعرف أننى سأفعله ..

فقط حين أجد الفرصة .. وحين يخمد ذلك الصوت الأخير الذى يهيب بى ألا أفعل ..

★ ★ ★

الأربعاء ٥ يونيو :

ـ « أين أنا ؟ »

نهضت من الفراش فى رعب ونظرت حولى ..

حجرة فاخرة جدًا مريحة جدًا .. ثمة جهاز تلفزيون مفتوح على منضدة وهو يعرض فقرات من قناة أجنبية ما .. رائحة عطرة فى الجو .. أنا ارتدى منامة حريرية لكن البرد يتخلل ثناياها .. البرد القادم من جهاز تكييف مركزى لا تعرف أين هو ، لكنه يعمل بكفاءة حقيقية ..

وتوترت أعصابى كأعصاب قط ، حتى لو أن الباب انفتح لوثبت مترين فى الهواء .. نهضت وتفقدت المكان .. أولا واضح من القائمة الموضوعة على النضد ، ومن الشعار الموجود فى كل مكان أن هذا فندق فاخر .. فندق من الفنادق التى تسمع عنها من حين لآخر عند زفاف ابنة الوزير الفلانى على نجل رجل الأعمال العلانى .. ثانيًا لى هنا حقيبة لم أرها قط ، بها حاجيات يبدو أنها تخصنى .. ويبدو أننى ابتعت ثيابًا جديدة قبل القدوم هنا .. ثالثًا : الساعة الآن العاشرة صباحًا .. ولم أكن أعرف اليوم وقتها ..

من الواضح تمامًا أننى لن أعرف أبدًا متى ولا كيف جئت هنا .. هذه حالة من فقدان الذاكرة المحدد Circumscribed amnesia حيث تذكر كل ما قبل وما بعد حادث معين ..

الآن هناك مشكلة صغيرة .. كيف أغادر هذا المكان ؟ سروالى معلق على المشجب .. بحثت فى حافظتى جيدًا فوجدت الـ .. حمدًا لله .. بطاقة الائتمان موجودة .. هذا يريحنى .. يجب أن أفرّ من هنا فرارى من الأسد ثم أحاول فهم ما حدث .. فهم الصورة كاملة ..

بحثت فى دليل الهاتف الخاص بالفندق ، حتى وجدت رقم الاستقبال .. استجمعت كل ما فى صوتى من (ألاطة) متذكرًا ما يفعله أبطال الأفلام فى مواقف مماثلة ، وطلبت من الموظف أن يعد لى الفاتورة لأننى مغادر الآن ..

ثم بدأت ارتدى ثيابى مبلبل الفكر .. لم أتصور قط أننى من هذا الطراز لكن يبدو أنها الحقيقة .. فقدان ذاكرة هستيرى .. جربت هذا الشعور من قبل ، ولكن فى ظروف جد مختلفة ..

وفى الاستقبال الفاخر ، حيث تجد زحامًا يشبه ما تجده فى أى (مول) فى وسط البلدة ، دفعت ببطاقة الائتمان

الحساب الباهظ لما عرفت أنه ثمن قضاء ليلتين فى هذا المكان .. ووقفت أنتظر إجراءات الـ (تشيك آوت) كما يصر الموظف على أن يسميها ..

وحدى .. إذن أين (برنادت) ؟ وما هى الظروف التى قادتنى إلى هنا ؟ وما موقفهم فى البيت الآن ؟؟

ترى هل هى مشاجرة ؟ كل زوج يمر بواحدة ويذهب إلى ذلك المكان المجهول (المنعزل) الذى يبرهن فيه على أنه قادر على الاستغناء عن البيت .. لكن هل نشبت بينى و(برنادت) مشاجرة ؟ ومتى ؟ ولماذا نسيت كل شىء عنها ؟

الحقيقة أننى كنت أرتجف .. لم أذق الخمر فى حياتى ، لكنى أفهم شعور السكير الذى يطردونه من الحانة فى الخامسة صباحًا ليجد نفسه فى الشارع ، عاجزًا عن معرفة من هو وأين هو ولأين يذهب ..

وحين جاءت حقيبتى ، وحين وجدت نفسى فى الميدان الواسع ، وحين دنت منى سيارة الأجرة تعرض خدماتها .. عندها فقط ثبت إلى رشدى .. على الأقل يمكن أن أعود إلى البيت ..

الآن سأريحك من التفاصيل ..

أنت تعرف كيف قوبلت لدى عودتى إلى الدار .. (برنادت) فتحت الباب - يا لشحوبها المريع ! - ورأتنى ثم هرعت إلى الداخل .. أمى احتضنتنى فى جنون وهى تبكى .. أخى كان أقرب إلى الغضب غير المتحفظ .. ناداني بـ (بنى آدم) .. كعادته حين يحتقن ، وقال وهو يضغط على أسنانه :

- « كلمة واحدة من أجل الأغنام التى تنتظرك فى الدار .. لكنك لا تطيق مجرد كلمة واحدة .. كان بوسعك أن ترفع سماعة الهاتف من أى مكان .. »

ثم همس وهو يقرب فمه من أذنى :

- « لم نخبر الوالدة .. لكنى مررت على كل أصدقائك والمستشفيات ولم أبلغ الشرطة كى لا أسبب لك حرجًا .. »

وأشار إلى الحقيبة :

- « أرى أنك أعددت كل شىء لقضاء فترة طويلة .. فلماذا تنازلت وعدت ؟ »

مذهولاً أسمع هذا كله .. مفتوح الفم كأبله .. عاجزًا عن إعطاء رد منطقى ، وقد زاد هذا الأمور سوءًا .. بدوت بالضبط كأننى نادم .. إنها عودة الابن الضال .. الذى كان (ضالاً فوجد) ..

فى النهاية جلست مع أخى فى غرفة الجلوس .. وكنت أسمع (برنادت) تتهنه فى مكان ما من الدار .. أشعل لفافة تبغ ، ثم وضع كوب الشاى أمامى ، وقال فى لهجة العارفين ببواطن الأمور :

ـ « أين كنت ؟ »

قلت شارد الذهن :

ـ « فى الفندق .. بعض التغيير .. »

استنشق بعض الدخان ، وأبقاه فى صدره ليشعر بأنه حكيم ، وقال :

ـ « هل ضايقتك ؟ تلك الفتاة .. كان هذا متوقعًا لأن اجتماع ثقافتين مختلفتين أمر لا يدعو للاطمئنان .. ليتك أصغيت لكلامى حين نصحتك بأن تتزوج مصرية .. هى القادرة على أن تفهمك وتعرف آلامك .. قل لى ما نوع المشادة التى نشبت بينكما ؟ هل أساءت لك كثيرًا ؟ ليتنى أفهم الفرنسية وإلا لاستطاع لسانى السليط أن يلقنها درسًا .. يجب أن تعرف أنها تزوجت رجلاً شرقيًا ، وأنه لا يقبل أن تملى أوامرها عليه .. ولكن .. صبرًا .. لست وحدك .. إن خالك قد يستطيع أن ... »

كدت أجنُ من ثرثرته .. رأسى قاعـة فارغـة يتردد فيها صوته على ما لانهاية .. فأمسكت برأسى وقلت فى صعوبة :

ـ « أتوسل إليك .. لم تكن هى المشكلة على الإطلاق .. »

ـ « إذن ما هى المشكلة ؟ هل ضايقتك أمى ؟ »

ـ « لا أعرف .. لم أتلق أيـة إساءة .. كل مـا فى الأمـر أننى لست على ما يرام .. صدقنى .. »

ثـم نهضـت عالمًـا أننــى بذلـك أجـازف بخسارته .. لكــن لا مفر لى .. لا أستطيع التظـاهر بلطـف المعشـر بينمـا لغز مبهم يحوم حول عالمى كله .. الظـل المرعب العمـلاق فـى الأفق يلقى الظلام على كل تفاصيل حياتى ..

وكمـا توقعت كـف عن الكـلام .. بعد قليل سمعته يـودع أمى لأنه سينصرف ..

ودخلت غرفة النوم وبحثت عن أوراقى ..

رأيت (برنـادت) جالسـة علـى الفراش كقطــة تعسـة ، تتظاهر بأنها تقرأ مجلة طبية من مجلاتها ..

لم أنظر لها .. فقط قلت وأنا أفتح خزانة الثياب :

ـ « (برنادت) .. أنا لا أعرف مـا حدث وليس لـدى أى تفسير .. لكنى أريد منك أن تمنحينى ثقتك .. أنا لـن أؤذيك أو أخدعك عامدًا أبدًا .. »

قالت فى برود :

ـ « لكنك تفعل ذلك عن دون قصـــد طيلة الوقت .. إننى مندهشة مـن كم الأشياء التـى تفعلهـا من دون قصد هـذه الأيـام ، وأرجـو أن تتـأخر قليـلاً اللحظـة التـى تسـكب فيهـا الكيروسين على ، وتشعل الثقاب من دون قصد .. »

ثم ابتسمت بمرارة وقالت :

ـ « سيعزينى وقتها أنك تفعل هذا غير عامد .. »

أعطينى أكثر ! هلمى يا فتاة ! لو كان هذا كل ما لديك فأنـا راض سعيد .. بضع كلمات لا تخدش ولا تدمى .. كنت أتوقع السوء ذاته ، لكنك بالفعل رقيقة كما عرفتك دومًا ..

قلت لها فى مرح وأنا أبدل قميصى :

ـ « قولى لى .. هل رأيت القاهرة القديمة ؟ ألا تتمنين أن ترى الأزهر ؟ »

نظرت لى فـى حيرة وقد انفرجت شـفتاها عن صرخـة أو شهقة أو احتجاج ، وهمست :

ـ « (علاء) .. لقد بدأت تخيفنى !! »

★ ★ ★

الخميس ٦ يونيو :

لا أعرف السبب لكن (برنادت) راضية عنى اليوم .. يبدو أن جولة أمس كانت ساحرة .. لقد رأت الأزهر للمرة الأولى ، وسمعت قصصى عن بوابات القاهرة .. الحقيقة أننى فيما يخص القاهرة القديمة يمكن بلا جهد كبير أن أكون مرشدًا سياحيًا .. برغم أن ذاكرتى أطارت يومًا كاملاً أو أكثر فإن معلوماتى العامة لم تضعف .. وفى المساء مشينا على الكورنيش وأخذتها لدار سينما ..

- « فى القاهرة لايمكن لعاشقين أن يعتبرا نفسيهما كذلك ، ما لم يمشيا على النيل ليلاً ويلتهما الترمس ! »

أحبت الترمس منذ قدومها إلى مصر ، وإن كاد يقضى عليها بالإسهال فى البداية .. لكننى أثق بأن المعدة التى تحملت (الكاسافا) وطعام (سافارى) الردىء سوف تصمد أمام الترمس ..

لست طفلاً .. هى قررت أن تسايرنى على أمل أن أتكلم .. ظلت تصغى وتبتسم وتصغى .. لكنى ظللت غامضًا ..

كلانا يخدع الآخر .. أنا أتظاهر بالمرح بقلب كسير حائر ، وهى تتظاهر بالمرح بفضول أنثوى يحرقها ..

وحين عدنا كنا قد اكتشفنا بعضنا من جديد ..

اليوم أجد أننى راغب حقًا فى الذهاب إلى المفاعل لأرى ما تم عمله ..

وهكذا تناولت إفطارى ثم أخبرتها بأننى ذاهب لرؤية ذلك العمل المعلق فى (حلوان) .. طلبت أن تذهب معى فاعتذرت لها بأنه (عمل رجال) أو Guy thing .. ثم قررت أن الهجوم خير وسيلة للدفاع فسألتها :

ـ « متى ستقولينها لى ؟ »

ـ « ماذا ؟ »

ـ « أنت تغيرت كثيرًا يا (علاء) .. ماذا دهاك ؟ »

ابتسمت وضغطت على شفتها السفلى فى تحد ، وقالت :

ـ « لا لن أقولها ! »

تنفست الصعداء ، ونهضت .. هنا أردفت وأنا على الباب :

ـ « حين يتحول الماء بالكامل إلى خل ، فمن السذاجة أن تسأل عما تغير فيه ! »

ترى ما معنى هذه العبارة الملتفة ؟

★ ★ ★

عدت إلى المختبر .. فتحت الشقة الثانية وفتحت النوافذ .. ثم خرجت إلى الشرفة أستنشق أنسام الهواء الذى هب علىّ من الجهات الأربع .. من الغريب أن يجمع مكان واحد بين البهجة والبؤس .. بين النضرة والقذارة .. هذا السطح يجعله رحبيًا فعلاً ، ويمكننى أن أرى الأيام القديمة على هذا السطح حين كانت الجارات يصعدن ليعلقن الغسيل على الحبال .. والأطفال يلهون هنا وهناك .. ربما اتخذت قطة هذه القصعة المقلوبة بيتًا لهريراتها الوليدة ..

أما اليوم فالمكان كله ملكى ..

هنا سمعت (الكلاكس) المميز يقول :

ـ « يا واد يا دقدق يا بن الإيه ! »

فلما تأخرت قليلاً تحول النداء إلى (يا ستيييييتة !) .. يمد الياء طويلاً جدًا كأنه يولول ..

تبًا ! أنا أكره الفضول والفضوليين وهذا أسوأ وقت يـأتى فيه (أشرف) بسيارته تحت البناية ليستعرض ثقافتـه التـى اكتسبها من سائقى اللورى .. إنه ـ بلافخر ـ يعرف عشرين نغمة كاملة ، يستدعى بها كل واحد من أصدقائه .. وقد كـاد سائق شاحنة يفتك بنـا ذات مرة ؛ لأن (أشرف) استعمل إحدى النغمـات التـى يعتبرونهـا سبة بذيئـة للغايـة .. طبعًـا أكدت للرجل أننـا (أفنديـان) مترفـان لا يفهمـان معنـى هذه النغمة ، وكيف نفهمه ؟

نزلت فى الدرج لأفتح البوابة ..

كان (أشرف) يقف هناك جوار سيارته فى أسمج حالاتـه ، وقدرت أننا سنتشاجر على الأرجح ..

ـ « هل عندك مـاء ؟ إن السيارة جافة كالقش .. »

وقبل أن أرد ، أزاحنى جانبًا ، وصعد فى الـدرج وقد بـدأ اللهاث باعتبار ما سيكون .. وقال لى وهو يصعد :

ـ « مـررت عليك فـى الـدار فقـالوا لـى إنـك خرجـت .. عرفت أنك هنا .. »

ووقف على الباب يجاهد من أجل التنفس ، وقال :

ـ « أين كنت فى اليومين الماضيين ؟ لقد جئت هنا عدة

مرات ، وأكاد أقسم أنك كنت موجوداً .. لقد كانت النوافذ مفتوحة .. لكنك لم ترد على .. »

- « أنت مخطئ .. هذه أول مرة أدخل فيها هذا المكان من يومين .. »

- « إذن أنت لم تغلق النوافذ .. وأين كنت إذن ؟ »

قلت كأنما أغنى :

- « فى الدار حتى خلت من نارنا الدار .. »

قال دون أى تعبير على وجهه :

- « ما كنت يا عماه معهم .. »

وراح يجوب الشقة ويتفقد الأجهزة والثلاجة الأفقية .. ينظر إلى الأسلاك والتوصيلات ومثبت التيار .. أنا أكره هذا .. أكرهه ..

قال فى النهاية :

- « لا يوجد جهاز كمبيوتر واحد .. ماذا تفعله هنا بالضبط ؟ »

قلت فى ضيق :

- « (أشرف) .. أنت لاتفقه شيئاً عن الكمبيوتر .. فلماذا قررت أن تكون (بيل جيتس) فجأة ؟ »

ـ « أنا لا أفهم فى تخليل الزيتون كذلك .. لكنى أعرف على الأقل أنه لابد من براميل وزيتون كحد أدنى كى تصف المكان بأنه (معمل تخليل زيتون) .. »

قلت فى نفاد صبر :

ـ « ليكن .. أنا لم أشتر شيئًا بعد .. فقط أعد المكان .. »

ـ « منذ أسبوع ونيف تعد المكان .. هذا غريب .. لاحظ أن وقتك هنا ليس مفتوحًا إلى هذا الحد .. »

ـ « أعرف هذا .. شكرًا .. »

غمغم فى غموض :

ـ « لا أعرف ما يحدث لك لكنى لا أحبه كثيرًا .. بمناسبة الزيتون والكمبيوتر والحب .. كيف حال الحمّام هنا ؟ »

ـ « يرسل لك تحياته .. يمكنك أن تستعمله وإن كنت لا أنصح بهذا .. لم ينظف بعد .. »

ـ « المحتاج يركب الصعب .. »

وانطلق إلى حيث الحمام .. بينما جلست أنا أفكر .. يجب التخلص منه بأى شكل .. لماذا أخشى الصدام إلى هذه

الدرجة ؟ ما قيمة فقد صديق آخر ؟ أعرف السبب .. أنا لا أريد شكوكًا جديدة من حولى .. لا بد من كسب ثقته ..

بعد قليل عاد من الحمام وكان يحمل شيئًا فى يده .. وإن استخدمه لتجفيف يده :

ـ « بالمناسبة يا (علاء) .. ما هذا ؟ »

كان هذا جلبابًا أزرق اللون نظيفًا وبحالة جيدة .. من النوع الذى يلبسه أولاد البلد الموسرون .. أنا أعرف جيدًا أنه لم يكن فى الحمام من قبل .. لم يكن فى الحمام شىء .. ومن العسير أن أزعم أنه يخصنى ، فهو ليس من الجلابيب البيض التى يلبسها أبناء المدينة من حين لآخر طلبًا للتخفف ..

لهذا قلت :

ـ « وكيف لى أن أعرف ؟ كان فى الشقة من البداية .. »

نظر له فى شك وقال :

ـ « نظيف جدًا .. لا توجد علامات إهمال عليه .. لا أتربة .. لو كان منسيًا لتحول إلى خرقة رثة .. »

أنا أيضًا كنت مندهشًا وخطرت لى الفكرة ذاتها .. لهذا قلت صادقًا :

ـ « لا أعرف .. لست مطالبًا بتقديم شهادة منشأ عن كل شيء أجده هنا .. هذه شقة مفروشة لو كنت لاحظت هذا .. »

وتذكرت التعبير الأمريكى العامى (هل اشترى هذا ؟ Did he buy that ?) بمعنى (هل صدق هذه الكذبة ؟) .. الحقيقة أننى بائع خائب ، ولم أنجح قط فى بيع أية كذبة للرجل ..

جلس (أشرف) بعض الوقت ، ثم وجدنى باردًا كالثلج ، فأعلن فى حرج أنه سيذهب كى أتفرغ لعملى ، ودخل إلى الحمام من جديد ليجلب بعض الماء فى زجاجة من أجل السيارة ..

ولكنى كنت أعرف أنه سيعود ..

ما إن انصرف حتى أمسكت بالجلباب أتفحصه .. للحظة تمنيت أن يكون هذا لصًا تسلل إلى الشقة ، وخلع جلبابه ليجيد عمله ثم تركه ورحل .. هذا بالطبع هراء لأن اللصوص لا يلبسون جلبابًا فاخرًا كهذا .. ولا يتركونه حين يرحلون ..

الآن لدى علامات استفهام أكثر من أن يتسع لها رأسى ..

اتجهت إلى المفاعل وفتحته .. ورحت أتأمل البخار الأزرق البارد المتصاعد من الداخل ..

بعد قليل بدأ ينقشع .. واستطعت أن أرى الكرات الزجاجية المختومة المتصلة بأسلاك .. كنت قد تركت خمس بلورات يوم الجمعة .. من أين جاءتْ هذه الكرات الثلاث ؟

انتصب الشعر فى مؤخرة عنقى، وأنا أمسك بإحدى الكرات .. كانت شفافة وإن كان يسبح فيها دخان غريب كأن هناك من نفث فيها دخان لفافة تبغ قبل أن يختمها .. ورأيت ملصقًا صغيرًا قمت بتثبيته فى وقت ما على الكرة (وهو ما لم أفعله من قبل) يحمل الحرف H .. ما معنى هذا ؟

الكرة الأخرى تحمل الحرف N .. الكرة الثالثة تحمل الحرف Y ..

وشعرت بجفاف فى حلقى ..

ما هى احتمالات أن أكون مخطئًا ؟

ما احتمالات ألا يكون الحرف N يرمز إلى (نسرين) ؟

رباه .. ماذا فعلت فى ذلك اليوم الذى غبت فيه عن وعيى؟

* * *

باصبع ترتجف تناولت جهاز الهاتف .. وضغطت على أرقام بيتها ..

الجرس يدق .. أسمع صوته يتردد فى جنبات البيت الكئيب ..

لا أحد .. لا أحد ..

أعيد الطلب من جديد .. آخذ نفسًا عميقًا وأكرر المحاولة ..

أكرر .. أكرر ..

وفى النهاية أدرك أن يدى ملوثة بالعرق حتى إن السماعة تنزلق من بين أناملى كثعبان الماء ..

هل أنا مندهش حقًا ؟

* * *



الجمعة ٧ يونيو :

لابد أننى طلبت ذات الرقم مائة مرة .. صارت أصابعى تطلبه لاشعوريًا حتى وأنا جالس إلى مائدة الطعام أو فى المترو ..

كنت أعرف أن الأمر عجيب لأن الفتاة لا تعيش وحدها .. أبوها وأمها حيان يرزقان ، ولها أخت أصغر سنًا .. إلا أن المرة المائة بعد الواحد نجحت .. ذكرنى هذا بالدكتور (إرليخ Erlich) الذى جرب ٦٠٥ مُركّبات على بكتريا الزهرى ، إلى أن نجح العقار التالى فجأة .. وهكذا كان أول دواء للزهرى فى التاريخ هو العقار ٦٠٦ ..

هكذا فى المحاولة رقم ١٠١ ارتفعت سماعة الهاتف ، وسمعت صوت أب من الطراز الذى يعرف قيمة ابنته أكثر من اللازم .. كان الصوت هو ذات الصوت الذى حطم أحلامى منذ أعوام وإن كان منهكًا متعبًا ..

ـ « مساء الخير .. هل الآنسة (نسرين) هنا ؟ »

كنت محرجًا بالطبع .. وتوقعت ردًا فظًا .. لكنه لشدة دهشتى قال باهتمام حقيقى :

ـ « من المتكلم ؟ »

ـ « هى تعرفنى .. إننى .. »

ـ « من المتكلم ؟ »

لاحظت ـ فى كثير من ذعر ـ أنه يتصرف كمن يمسك بخيط لا يريد تركه .. ولحسن الحظ كنت أتكلم من هاتف عمومى ، لذا وضعت السماعة على الفور .. الأمر لا يتعلق بغيرة أب على ابنته ، أو رغبته فى معرفة من الوغد الذى يتصل بها .. الأمر يتعلق بحاجته إلى خيط يرشده إليها أو إلى ما تبقى منها !!

ووقفت فى الشارع أفكر فى عمق ..

الأمر لا يحتاج لتساؤلات أكثر .. لقد تم .. البلورة التى تحمل حرف N تشير إليها بلا جدل .. لكن كيف تم ؟

مشاعر متناقضة عصفت بى وأنا أمشى مترنحًا فى ردهات المترو .. خوفًا من أن أكون فعلتها .. رضًا عن كونى فعلتها .. الأمل فى أن أكون فعلتها .. عدم الفهم لكيف فعلتها .. متى وأين فعلتها ؟

طبعًا ابتعت الصحف كلها لأعرف ما حدث .. لابد من خبر ما يشير إلى تحقيقات الشرطة بصدد اختفاء فتاة فى الثانية والثلاثين .. كتب (على الشلقانى) محررنا .. إلخ .. إلخ ...

لكن لا يوجد شىء من هذا ..

وماذا عن حرفى H و Y ؟ الرجل ذو الجلباب لا يمكن أن يكون اسمه (ياسر) فهل هو (يحيى) أو (ياسين) ؟ وماذا عن (حمدى) أو (حلمى) ؟

★ ★ ★

ماذا حدث يوم الثلاثاء الرابع من يونيو ؟

ماذا حدث ليلة الثالث من يونيو ؟

هناك خيط واحد يمكن أن أبدأ به ..

وفى السابعة مساء اجتزت مدخل الفندق إلى حيث (اللوبى) .. وسط الصخب والزحام ومجموعة من السياح يقفون أمام موظفى الاستقبال ، فشققت طريقى ، وأنا أقدر أن ما سأقوله سيكون سخيفًا جدًا ..

بعد محادثة طويلة بالإنجليزية مع عجوز بريطانية شمطاء ، التفت لى الموظف رافعًا حاجبيه فى تساؤل ، مع مسحة من قلة الذوق التى يفرق بها أغلب موظفى السياحة بين معاملتهم للسياح ومعاملتهم لأبناء بلدهم .. لابدَ من مسحة التعالى هذه .. قلت له فى جفاء مماثل :

- « أريد معرفة متى جاء إلى الفندق من يدعى (علاء عبد العظيم) .. أعتقد أنه جاء يوم الإثنين مساء ، أو يوم الثلاثاء لكنى أريد معرفة الساعة .. »

نظر لى مليًا ، ثم غمغم فى اشمئزاز :

- « لكن .. إننى أتذكرك .. لحظة واحدة .. »

وفتح دفترًا ليراجع الأسماء ، وضرب على عدة مفاتيح من الكمبيوتر ، حتى توقعت أن يأخذ عينة من جلدى لإجراء تحليل (تفاعل سلسلة البوليمريز PCR) .. ثم قال بنفس السماجة :

- « الإثنين .. بعد منتصف الليل .. بمعنى آخر فى الساعات الأولى من صباح الثلاثاء .. كان هذا فى الـ Shift الخاص بى .. أنت (علاء عبد العظيم) نفسه .. هل هناك دعابة ما ؟ »

طبعًا لا أتوقع منه أن يقول (وردية) بدلاً من Shift لكنى تناسيت ذلك فى محاولة البحث عن تفسير لهذا السلوك الغريب منى .. نظرت حولى وابتلعت ريقى وقلت :

- « حسن .. لنقل إنها - بصراحة - هى حالة مرضية تجعلنى أتصرف دون أن أعرف ماذا فعلت ولا مع من كنت .. »

- « هذا يبدو غريبًا يا سيدى .. »

- « فقط ثق بى .. يبدو الأمر كمزحة أو خدعة ما .. حسن .. أؤكد لك أن هذا غير صحيح .. فقط أرجو أن تجيب .. هل كنت وحدى ؟ »

فكر قليلاً ثم قال :

ـ « طبعًا يصعب أن أكون دقيقًا .. على الأقل أنا متأكد من أنك كنت ثملاً وكانت معك امرأة تضع نظارة سوداء .. ربما كان معك رجل لكننى لا أستطيع أن أؤكد .. والغرفة كانت Single على كل حال .. »

امرأة بنظارة سوداء ! ثمل ؟ أنا ؟ يا للكارثة !

ـ « وهل صعدت المرأة معى إلى غرفتى ؟ »

مط شفته على طريقة (لا ـ أستطيع ـ أن ـ أساعدك ـ أكثر) .. وقال :

ـ « من المستحيل أن أتذكر كل هذا ، خاصة أن الـ Season فى ذروته .. »

ونسيت أن أشكره .. رحلت شارد الذهن كاسف البال ..

لكنى لم أستكمل خيوط القصة بعد .. ترى هل هناك طرف آخر ألجأ إليه ؟

* * *



السبت ٨ يونيو :

صرت أكره العودة للبيت .. لأنى أعرف أن مغادرته ستكون صعبة .. إن الخروج من الحمام ليس كالدخول فيه ، ولا بد من أسئلة واحتجاجات .. لا ألوم أسرتى كثيرًا ، لكنى يجب أن أجد جوابًا لمعضلتى .. وهم يعقدون الأمور .. النتيجة هى أننى صرت أمضى أكثر اليوم فى الخارج فلا أعود إلا لأنام .. هذا يقلل المواجهات ..

كانت (برنادت) شاحبة بشدة لكنى لم أوجه لها أسئلة حتى لا أفتح أبواب (جهنم) ..

الحقيقة أن التفكير فى تجاربى و(الظاهرة) بدأ يخفت قليلاً .. لا أعرف السبب لكنى بالفعل أشعر بهلع عارم من أن أكون فعلتها حقًا .. برغم أن الفكرة منذ أيام لم تكن بهذا السوء .. ثمة فكرة واحدة تلح على ليلَ نهارَ ، وهى أن أبرهن لنفسى على أننى لم أفعل ذلك .. أما لو تأكدت ..

لو تأكدت مما أخشاه فلن أتردد .. كنت معروفًا فى الصف الدراسى بأننى الوحيد الذى يسلم نفسه للمعلم معترفًا بأنه هو

من قذف قطعة الطبشور على جاره .. وكنت أتلقى ضربات العصا شاعرًا برضًا عن النفس ـ ممزوجًا بفخر لا شك فيه ـ يزيل الألم .. أنا الوحيد الذى جرؤ على الاعتراف .. وعلى كل حال لا قيمة لحياة قد تمتد خمسين عامًا آخر ، وأنا أواجه نفسى كل يوم بالحقيقة المريرة : أنت قاتل سادى مريض ..

ليتنى ما فتحت مفاعلك يا (كومارسكى) .. ليتنى لم أتلق وصيتك الدامية .. ليتنى لم أتسلق الجبل أصلاً .. والمؤلم هنا أن فى الموقف مسحة (مانوية) لا تخفى على أحد .. الشر قوى جدًا ويختار ضحاياه جزافًا وليس لأنهم يستحقون ذلك .. أنا بالتأكيد لم أستحق هذه اللعنة حين قبلت مهمة تسلق الجبل .. لا أحمل فى كيانى من الشر الخفى ما يبرر أن أحمل كل هذا العبء ، وأن أتصرف بقذارة ضد كل قناعاتى .. أؤذى نفسى والآخرين ..

والآن هى ورطة لا أعرف منها فكاكًا ..

* * *

ماذا حدث يوم الثلاثاء الرابع من يونيو ؟

ماذا حدث ليلة الثالث من يونيو ؟

رفعت الممرضة السمراء رأسها عن الدفتر الذى تمسك بـه ، فعرفت أن اســمها بالتـأكيد (محاســن) .. وبالتـأكيد تشاجرت مع زوجها اليوم ، وتمقت كل صنف الرجـال .. لم أر قدميها لكنـى أراهمـا بعين الخيـال كحزمتـى فجـل فـى شبشب رث ..

كانت قاعة الاستقبال خالية ما عدا رجلاً يروح ويجـىء حاملاً كيساً من البول ، يتدلى بقسطرة من تحت جلبابه الأبيض الـذى يرفع طرفه بيده الأخرى .. هذا بالتأكيد عم (بسيونى) وقد مر منذ يومين بجراحة ناجحة لاستئصال حصوة ..

سألت الممرضة :

ـ « هل هو بالداخل ؟ »

كانت لافتة (الروضة) ـ اسم المستشفى الخاص ـ تعلـو رأسها ، وجوارها بعض الآيات القرآنيـة ، ثم عدة شـهادات موضوعة فى أطر ، وقصيدة كتبها مريض فى مدح الطبيـب تبدأ بالمقطع العبقرى :

(أسرعت نحوك بالجراح الدامية .. فشفيتها بالعلم والأخلاقا) ..

طبعًا لو سألته عن الألف الزائدة على (الأخلاق) لقال لك

إنها الضرورة الشعرية ، وإنك ـ عدم المؤاخذة ـ لا تفهم هذه الأمور .. أشعر كأن هناك شاعرًا واحدًا حمارًا يكتب كل القصائد التى تراها فى عيادات الأطباء ..

قالت (محاسن) فى كراهية ودون أن ترفع عينها نحوى :

ـ « بالداخل .. »

ـ « إذن قولى له إن من يدعى الدكتور (علاء عبد العظيم) يريد مقابلته .. »

كان الطبيب ملىء الجسد يبدو عليه الرضا عن الحياة والبشر .. وإن كان قد تغير نوعًا حين سألته عن الدكتورة (نسرين) التى تقوم بتخدير حالاته ..

قال فى ضيق :

ـ « للمرة الرابعة أقول إننى لا أعرف عنها شيئًا منذ يوم الإثنين .. أنهت عملها وخرجت فى العاشرة مساء .. هذا يحدث دومًا فى يوم العمليات الكبرى .. قلت هذا للشرطة وقلته لأبيها .. والآن أقوله لك ، وإن كنت لا أعرف من أنت حقًا .. »

ـ « ولم تعد قط ؟ »

ـ « لم تعد قط .. والآن من أنت ؟ »

ـ « أنا زميل .. »

وخرجت من الحجرة قبل أن يوجه لى المزيد من الأسئلة ..

فى الخارج كدت أصطدم بعم (بسيونى) الذى يجوب المكان كالأشباح .. ثم اتجهت إلى (محاسن) التى جلست تقرأ كتيبًا عن (كيف تسعدين زوجك ؟) .. طبعًا تمنيت من أعماقى أن أصارحها بأن الطريقة المثلى لإسعاد زوجها هى أن تموت أو تسمح له بأن يطلقها ، لكنى توقعت ألا ترحب بهذا الرأى ..

سألتها فى كياسة :

ـ « دكتورة (نسرين) .. ألم تعد تأتى هنا ؟ »

نظرت لى ثم قالت فى ضيق :

ـ « نعم .. لم تعد تأتى . ثم لماذا تسأل ؟ من أنت ؟ »

ـ « أنا د . (علاء عبـ ... »

ـ « وأنا غير مخولة بالكلام معك ، والآن أرجو أن تغرب عن هنا .. أرنى عرض كتفيك !! »

وانفتح فمها عن آخره ، وتعالى صوتها فـى سـوقية وفظاظة فهرعت أغادر المكان ، ولو كنت فى حالتى النفسية العدوانية المعتادة لاستمتعت بهذه المشاجرة .. لكنى الآن هش كطفل ، فلو صفعنى أحدهم لما وجدت القوة على الاحتجاج ..

الآن أنا أعرف الحقائق جيدًا : (نسرين) اختفت فعلاً .. أهلها يحترقون لهفة عليها .. الشرطة تحقق .. ليس الأمر وهمًا .. فقط هناك واحد فى الكون يعرف أين هى .. ولكن أهلها لن يسروا كثيرًا لو حصلوا على البلورة التى تحوى (الظاهرة) المنتزعة منها .. تحت التعذيب !

أى نوع من التعذيب ؟ أين ؟ كيف ؟

* * *

ماذا حدث يوم الثلاثاء الرابع من يونيو ؟

ماذا حدث ليلة الثالث من يونيو ؟

كنت جالسًا فى المختبر أمام المفاعل . أمامى تلك البلورة التى ألصقت عليها حرف N .. كل هذا يتلخص فى هذه البلورة ؟

لو كنت تحسنين الكلام لقلت لى ماذا فعلت بك ؟ هل حقًا قتلتك ؟ هل آذيتك ؟

« وهكذا صار بوسعى أن أستكمل تجاربى على تلك الطاقة الغامضة التى أطلقت عليها (الظاهرة) ..

يجب أن أتجنب ذكر بعض الحقائق .. لقد اضطررت للأسف لارتكاب فظائع كثيرة .. لم أكن قط قاسيًا لكنك تفهم أننى أحرقت كل سفنى ، ولم يعد أمامى إلا أن أستمر فى تجاربى .. يجب أن أنجح وأكون عديم الرحمة .. إن لى رجلين من قبائل (الكاشا) على استعداد لعمل أى شىء مقابل المال ، وقد سهلا لى بمعونة (جولد سميث) الجزء العنيف من الموضوع .. الاستدراج .. التعذيب .. ثم الحصول على تلك الطاقة المهمة .. »

هذا هو ما قاله (كومارسكى) فى رسالته لى ، فهل انضممت أنت إلى موكب الرعب ؟ هل تحولت إلى مشهد مخيف من المشاهد التى كنت أراها ونحن نتسلق الجبل ؟ لو فرضنا هذا فأين الجثة ؟

هنا خطر لى خاطر مرعب ..

أعدت كل شىء لمكانه ، ثم أخذت كشافًا كهربيًا صغيرًا ، ونزلت فى الدرج .. إلى الطابق السفلى حيث بئر السلم .. لا أملك سيارة ، لهذا لا أعتقد أبدًا أننى نقلت الجثة بسيارة .. لا يمكن أن أدفنها فى الشارع القفر ، ولا أن أتخلص منها

فى الضاحية كلها . لن أتركهـا فى الشـقة ولـن ألقيها علـى السطح .. إذن ....

هنا سمعت من يصيح فى الشارع ..

أجفلت واتجهت إلى البوابة أفتحها ..

كان فتى فى الخامسة عشرة من عمره ، يلبس قميصًا وسروالاً أبيضين متسخين .. ومعه دراجة . وقد أدركت أنـه حرفى .. قال لى فى كياسة :

ـ « لقد نسى الأسطى (عبـد الوهـاب) مفك الاختبـار عندكم يوم الثلاثاء .. »

نظرت له فى غباء ، ثم سألت السؤال العبقرى :

ـ « ولماذا كان الأسطى (عبد الوهاب) هنا يوم الثلاثاء ؟ »

ـ « أنتم طلبتموه .. كان هناك ماس كهربائى فى الشقة .. »

ـ « وأين ورشتكم هذه ؟ »

أشار فى اشمئزاز إلى الشارع الخلفى :

ـ « هناك .. جوار المخرطة .. »

كأنما من البديهى ألا تسأل عن مكـان الشمس .. كل يعرف مكانها أيها الأحمق ، فعدت أسأله :

ـ « أنا طلبته ؟ »

ـ « لا اعـرف .. وقد جـاء وأصلـح كـل شـىء .. ونسـى المفك .. جئت مرتين فلم يكن أحد هنا »

قلت له فى ضيق وأنا أصعد فى الدرج :

ـ « تعال ابحث عما تريد .. »

بعد تفتيش طـال فى الشقة وجد المفك .. وجدناه فوق لوحـة توزيع الكهرباء .. وكان هناك سواد يوحى بماس كهربى فعلاً .. عاد الفتى بغنيمته إلى مطعمه ، وعدت أنا إلى هواجسى السوداء ..

إذن كنت أنا فى الشقة يوم الثلاثاء .. وكنت أجرى تجـاربى .. هذا بالتأكيد سبب ما حدث للتيار الكهربى .. هل قضت (نسرين) ليلة الإثنين هنا ؟ مستحيل .. على الأرجح هى لقيت نهايتها يوم الإثنين ، وانهمكت أنا فى (العمل) يوم الثلاثاء كله ..

من يملك الإجابة عن هذه الأسئلة ؟

هنا تذكرت ما كنت بصدده ..

أغلقت الباب ، ووقفت هنيهة فى بئر السلم المظلم حتـى اعتادت عينـاى الظلام .. لو أننى قتلت فيلاً ودفنته دفنـه فلا يوجد

مكان أفضل من هذا .. بالفعل هناك جوال به بعض بقايا الأسمنت وهناك قصعة ومطرقة من النوع الذى يقال له (أجنة) ..

الجدار تحت السلم كله مكسو بالملاط .. فلم يعن أحد بدهان ما نتج عن عمل مبيض المحارة .. عيناى قادرتان الآن على تمييز اختلاف لون الأسمنت بين الجدار وبين بقعة فى مركزه بالضبط .. طبعًا قد جف الأسمنت الآن لكن كثافة العجينة وبراعة من يؤدى المهمة تباينت .. كان الجدار مقعرًا .. فلابد أننى حفرته أكثر كى يزداد تقعرًا ، ثم وضعت ما أريد فيه وغطيته بطبقة من الأسمنت .. وهذا يفسر انبعاج الجدار الآن فى هذا الموضع بالذات ..

هكذا بدأت أدق .. أدق مهشمًا طبقة رقيقة من الأسمنت المنبعج ..

إنه هش بالفعل .. لو أخذت رأيى لقلت إن هذا ليس عمل محترف على الإطلاق ..

بدأت ثغرة بحجم كفى تتسع .. قربت رأسى أكثر ..

أضأت الكشاف وأنا ألهث ..

الشعاع يسقط على الفجوة المصنوعة بالداخل ..

يا للظلال ! بصعوبة أفهم ما أنظر إليه .. هذا رأس .. رأس امرأة يغطيه الشعر .. لحسن حظى أنه مغطى بالشعر

وأنها لاتنظر نحوى .. أعرف هذا الرأس .. أذكره .. عشقته .. حلمت به كثيرًا جدًا ..

- أطلقت شهقة ثم ارتميت على الأرض ..

هل فقدت الوعى ؟ أرجو أن يكون هذا حدث وإلا فأنا صنم بلا مشاعر ..

★ ★ ★

قضى الأمر ..

انتهت الأسئلة وانتهت الحيرة ولم يبق إلا يقين مريع ..

(علاء عبد العظيم) الطبيب الشاب المرموق وأب المستقبل ، قد تحول إلى غول ينقب عن العذاب البشرى والموت والدماء .. لقد كان أبوها بعيد النظر حقًا حين توقع أنه لامستقبل لى على الإطلاق .. وأنت يا (برنادت) .. ترى كيف تفهمين الأمر ؟؟ مهما كانت درجة تفهمك وتسامحك فأنا بحاجة إلى زوجة خليط من (غاندى) و(شكسبير) و(فريد) وخالتى وأمى كى تجد مبررًا لهذا الذى قمت به ..

فقط أدعو الله أن يحضروا لى محاميًا أحمق يجهل كل شىء عن أصول مهنته ، وبهذا ألقى عقابى الحق ..

★ ★ ★

صفحات من مذكرات د . (برنادت جونز) :

السبت ١ يونيو :

مفكرتى العزيزة ..

لا أعرف .. لم أتصور نفسى يومًا من طراز الفتيات اللاتى يعقصن شعرهن بشريط حريرى ، ويرقدن على الفراش مطوحات بأقدامهن مفكرات فى السطر التالى الذى يكتبنه لمفكرتهن العزيزة .. لكن الأمر وقع على كل حال !

الحقيقة أننى أرغب فى مكان ما وشخص ما أفضى له بكل الأسرار المعتملة داخلى .. الحقيقة هى أن (علاء) يتغير . لا أستطيع فهمه ، وأشعر أحيانًا بأنه شخص عجيب .. هذه أشياء لا توصف ولا يمكن وضعها فى كلمات ، لكنها تلك النظرة الغريبة المتباعدة التى عاد بها من (كليمنجارو) .. ثمة مسحة معينة من القسوة فى عينيه .. هذه النظرة تزداد الآن وهو لا يعبأ بى ولا بأحد من أهله .. إنه عبد لفكرة ما تسيطر عليه ..

حقًا لا أستطيع فهمه . ماذا يبقيه خارج البيت طيلة اليوم والمفترض أن أيامنا هنا معدودة ؟ صرت لا أراه إلا فى المساء ، وهو دائمًا منهك غامض لا يريد إلا النوم ..

واحدة أخرى ؟ ليت هذه هى الحقيقة .. فهذا على الأقل سبب يمكن علاجه أو مناقشته .. شيء أرضى تمامًا .. أما ما أشعر به من نظرات (علاء) فهو شيء لا يمت لعالمنا بصلة .. وأعترف بأننى شعرت بشيء كهذا حين كان فى (كليمنجارو) ..

لو كنت فعلاً أملك تلك القوة النفسية (القياس النفسى Psychometry) التى حسبت أننى أملكها لعرفت ما يجرى هنا ، لكنى بالفعل كففت عن الاعتقاد فى امتلاكى لها .. ولو كنت أملكها فإن الحمل قد قضى عليها ..

والحمل ! إننى لست على ما يرام ..

كل بقع الدم هذه مع آلام أسفل الظهر .. يبدو أننى بصدد (إجهاض منذر) .. لكنى لن أزعجهم هنا ، والأمر عسير على كل حال ما دام (علاء) ليس موجودًا معى .. سيفهم أهله أننى أريد كوبًا من الماء ، لا طبيب أمراض نسائية . سأحاول أن أقلل من تحركاتى قدر الإمكان .. وهذا عسير مع كل هؤلاء الضيوف فى البيت ..

هذا المساء عاد (علاء) إلى الدار وكان أخوه وزوجته عندنا .. جاءته مكالمة مبهمة فنهض ليتكلم .. طالت المكالمة جدًا ، وأعتقد أنه كان مرتبكا بحق .. لو كانت هذه امرأة فلسوف أكون سعيدة راضية .. على الأقل هناك تفسير مريح لكل الذى يحدث ..

★ ★ ★

الأحد ٢ يونيو :

الدم مستمر .. هل يتحول (الإجهاض المنذر) إلى (إجهاض إجبارى) ؟

الأمر يحتاج إلى رأى ثان ، لكن (علاء) ـ ذلك الشيطان التعس ـ ليس موجودًا فى حياتى .. بالواقع لم يعد له وجود فى حياة أى شخص يعرفه .. لمه تتساءل عن السبب ، لكن إصبع الاتهام يشير لى كما هو واضح من لغة النظرات العالمية ..

لماذا يترك الرجل بيته إلا ليفر من زوجته ؟

هناك صديقه المدعو (أبو سيف) .. (مختار أبو سيف) .. معى رقم هاتفه .. إنه الشخص الوحيد الذى أعرفه هنا ويجيد الفرنسية والعربية معًا ، لكن من الغريب نوعًا أن يكون موضوع لقائنا الثانى هو حاجتى إلى من يصحبنى لطبيب أمراض نسائية . دعك من أن هذا سيسبب الكثير من الحرج لـ (علاء) ..

كلا .. من الخير أن أصمت وأبتلع ما يحدث ..

سأكون بخير ..

أعرف هذا .. سأقاتل كى يصير حقيقة ..

* * *

الاثنين ٣ يونيو :

للأسف لا تكفى قوة الإرادة وحدها لوقف النزف .. يحتاج هذا إلى أحد معلمى اليوجا .. لكن الأمر يزداد سوءًا ..

وفى السادسة مساء دخلت الحمام ومكثت فيه بعض الوقت .. سيحزن (علاء) كثيرًا لو فقدت هذا الحمل .. لكن لا .. من قال إنه يبالى به أصلاً ؟ كان خائفًا من مشكلة الأبوة فى بلد غريب .. هذا شىء أفهمه وأقدره .. لكن المشكلة الآن أنه لا يبالى بالأمر على الإطلاق .. أنا مجرد فتاة شقراء موجودة بشكل ما فى داره ..

نهضت لأغسل وجهى ، وهنا شعرت بأن مركز إبصارى بقعة سوداء .. وقدماى لم تعودا ملكى .. إن قانون الجاذبية أقوى من الجميع يا فتاة فلا تحاولى ..

إنه يسقط التفاح فوق رأس (نيوتن Newton) .. ويغمر الأرض بالمطر ، ويجعل الطبيبات الكنديات يسقطن على أرض الحمام ..

وسمعت صوت من يطرق الباب بالخارج .. نسيت أن

أقول إنه فى هذا البيت العتيق لا يعتمد الحمام على المزلاج .. يعتمد على التفاهم العام بين أفراد الأسرة .. هناك أحدهم بالداخل فلا تدخلوا ..

هكذا سمعت من يطرق الباب .. يبدو أن الفترة طالت ، ثم انفتح الباب .. لا أعرف من دخل .. على الأرجح زوجة أخى (علاء) وأخوه .. وشعرت بأننى أحمل حملاً إلى الفراش ..

أنا أفضل حالاً بالتأكيد .. لا تقلقوا .. إنهم طيبون فعلاً ملتهبو العاطفة هنا ..

الزوجة تجفف عرقى البارد بمنشفة ، وأم (علاء) التى جاءت من مكان ما دون أن ترى شيئًا أعدت لى كوبًا من عصير الليمون البارد .. بينما الزوج يمسك بالهاتف ويطلب عدة أرقام فى هستيريا ..

بعد قليل ظهرت تلك السيدة المحجبة التى تحمل ملامح الطب التى لا يمكن الخطأ فيها .. هاتان العينان الفاحصتان المتعبتان اللتان لن يدهشهما شىء ..

أجرت فحصًا سريعًا لى فسألتها السؤال الأهم بإنجليزيتى الكسيحة :

- « هل فقدته ؟ »

قالت بإنجليزية ليست أحسن حالاً :

- « لا .. هذا إجهاض منذر .. سألحقك ببعض الهرمونات إلى أن تتمكنى من إجراء فحص بالموجات الصوتية .. »

- « وهل أحتاج إلى دم ؟ »

- « لا أعتقد ذلك .. سأصف لك بعض الحديد بالفم .. »

وهكذا أخذت العلاج لكنى لم أشعر بأننى أفضل حالاً ..

فى السابعة مساء جاء (علاء) .. وسمعتهم يحكون له التفاصيل من الخارج ..

أخيرًا جاء .. لا أقبل حقيقة أنه كان متغيبًا بلا عذر .. ماذا دهاه ؟ لماذا تغير ؟

لست ممن يدمنون الرثاء للنفس ، لكنى لم أستطع المقاومة أكثر ورحت أنهنه فى الظلام ..

بعد قليل دخل الغرفة المظلمة ، واتجه كالعادة ليتسلق خزانة الثياب ليضع ما معه من أوراق فى ذلك الرف العالى .. هذا هو أول ما يفعله حين يعود إلى الدار ، وأنا لست فضولية ، لكنى الآن أتساءل بحق ..

تعالى صوت بكائى فكان أول ما حياه .. عيناى اعتادتا

الظلام لهذا رأيته ورأيت الحقيبة التى وضعها جوار الفراش .. لكنه انتظر كثيرًا حتى يعرف أين أنا ..

جلس جوارى وتحسس معصمى فى رفق .. وهمس :

ـ « (برنادت) .. أنت فى حال سيئة .. إن يديك باردتان كالثلج .. »

لم أرد وواصلت البكاء .. بكاء المرأة الذى يشبه انهيار السدود فلا ينتهى إلا حين ينتهى ، ولا توجد قوة فى الأرض تستطيع منعه إلا جفاف الدموع ..

ـ « (برنادت) .. أنت .. أنت تتعذبين ؟ هل تتألمين ؟ »

لم أرد وواصلت البكاء فى صمت ..

ـ « (برنادت) .. هل تتألمين ؟ هل تشعرين بدنو النهاية ؟ »

قالها فى شىء من اللهفة .. ما هذا ؟ هل جن ؟ آخر ما يقال لمريض على الفراش هو : هل تشعر بدنو النهاية ؟ ثم ما سر هذه اللهفة ؟ لم كل هذا التوتر ؟

أغمضت عينى .. وقررت أن أنام .. ربما للأبد لو كنت حسنة الحظ ..

هنا شعرت بشىء غريب يثبت إلى ذراعى ..

كان ـ المخبول ـ يثبت إلى كاحلى وساعدى قيودًا تشبه تلك المستخدمة فى جهاز تخطيط القلب .. ما معنى هذا ؟ كان يلهث كالمجنون ويقول وفمه مغلق :

ـ « صبرًا .. إن هى إلا لحظات .. اصبرى يا عزيزتى !! »

ما هذا ؟ هل جن الجميع ؟

نهضت واثبة من الفراش برغم آلامى وانتزعت هذه القيود ، وركلتها ، فراح يجمع الأسلاك فى هستيريا كى لا تتبعثر .. كل هذا على الضوء الخافت القادم من الصالة ..

ـ « هل تجرى على تجربة ما ؟ هل جننت ؟ »

طبعًا هى تجربة .. يذكرنى هذا بذلك البلجيكى الوغد ـ هل كان اسمه (دوبون) ؟ ـ حين راح يسجل لحظات الألم الشنيع لصبى إفريقى محترق ، فقط كى يضم عاطفة قوية إلى مكتبته الخاصة .. يومها أوسعه (علاء) ضربًا وكاد يُطرد من (سافارى) .. لكن هذا كان (علاء) أعرفه وأفهمه .. أما (علاء) هذا فهو يفعل نفس ما فعله (دوبون) ربما بشكل أفظع ..

(دوبون) لم يجر هذه التجربة على زوجته الحبلى !

ـ « أنت جننت !! »

هنا بدا لى وقد تراجع قليلاً ..

طرقات على الباب .. لقد سمعوا صرخاتى بالفرنسية :

ـ « هل هناك مشكلة يا (علاء) ؟ »

قال بصوت مبحـوح شيئًا مـا بالعربيـة ، فـزال الطرق .. ودفن وجهه بين كفيه ..

كان يبكى ..

قلت له وأنا أرتجف غضبًا :

ـ « (علاء) ! أنا لا أعرف ما دهاك .. لقد صرت وغدًا لا يبالى بأحد .. ثم ولعك برؤية الألم .. أرى عينيـك تتابعـان نشرات الأخبار فى شغف .. تتحرق شوقًا لترى هؤلاء الذين احترقوا أو جرحوا فى الحروب والكوارث .. »

وأخذت شـهيقًا عميقًـا كـى لا أفقـد وعيـى .. هـل عـاد النزف ؟ لا يهم ..

ـ « كنت تتحرق شوقًا لتكون جوار أمك .. ثم ها هى ذى .. أنت لا تراها تقريبًـا .. ومـن يضمـن لـك أن تكـون حيَّـة فـى إجازتنا القادمـة ؟ كنـت متدينـًا لكنـى منذ جئنـا هنـا لـم أرك تتعبد مرة واحدة .. أنت تغيرت كثيرًا جدًا حتى إننى لأعتقد أنك ممسوس أو تحت استحواذ ما .. »

ووضعت أناملى تحت ذقنه وسألته بهدوء :

ـ « هل لديك ما تقول ؟ »

نظر لى طويلاً ، وفى عينيه تلك النظرة التى تراها فى عيون المجرمين على صفحات المجلات .. ثم قال :

ـ « ليس لدى ما يقال .. »

وجمع أسلاكه وحقيبته وغادر الغرفة .. وعرفت أنه غادر الدار ذاتها ..

ما إن انصرف حتى اتجهت إلى خزانة الثياب .. تسلقت إلى أن بلغت الرف العلوى .. قدماى ترتجفان .. إننى .. أى !!

انفتح الباب ودخل أخو (علاء) ليجدنى على الأرض أتأوه .. هتف وهو يعيننى على النهوض بشىء ما بالعربية .. يلومنى على الأرجح على أننى غادرت الفراش ، فأشرت له بيد ترتجف إلى الرف العلوى وقلت فى حزم بالإنجليزية :

ـ « أوراق .. أوراق .. »

قال شيئاً ما ، ثم وثب على الإفريز ، وتناول الملف الخاص بـ (علاء) وجلبه لى .. أعتقد أنه حسب الأوراق

تخصنى .. ثم وجد شيئًا آخر .. مجموعـة مـن الخطابـات .. نظر لها وابتسم ثم دسها فى جيبه(*) ..

ابتسمت له شاكرة ، فحيانى وغادر المكان ..

أخيرًا أمسك الأوراق بين يدى . أكره أن أفعل ، هذا لكنى مرغمـة عليـه .. لا يوجـد الكثير علـــى كـل حـــال .. هنـــاك مذكرات بالعربية يبدو من التاريخ أنها تقـع فـى هـذه الأيام بالذات ، ولعل (علاء) كان يكتبها فى أثناء نومى كما أفعـل أنـا هـذه الأيـام .. وهنـاك خطـاب طويـل بالفرنسـية .. يبـدأ بالكلمات التالية :

ـ « إلى الطبيب الشاب الذى سيقرأ هذه الأوراق : »

وينتهى بالكلمات التالية :

ـ « سامحنى على ما قمت به .. وأتمنى لك حظًا سعيدًا فى تجاربك القادمة .. »

بإخلاص : ارنست كومارسكى

قرأت الخطاب فى تركيز .. وبدأت أشعر بحلقى يجف ..

هل هـذا هـو تفسير ما يحـدث لـ (علاء) الآن ؟ ما زال

(*) ملحوظة : أعتقد أن أخا (علاء) وجد خطابـات (مـى) التـى أخفاها (علاء) عنه منذ نحو عشرين عامًا !!

(كومارسكى) يمارس تأثيره الضار بعد هذه الأعوام كلها .. بل إن (علاء) حمله معه إلى (مصر) ..

ماذا فى هذه المذكرات ؟ لابد من أن أعرف ....

اتجهت إلى الهاتف وطلبت الرقم الذى أعرفه .. (مختار أبو سيف) .. يجب أن يترجم لى ما تحتويه هذه الأوراق ..

* * *

كانت العاشرة والنصف مساء ونحن جالسان فى الصالون .. حين فرغ من قراءة هذه الأوراق .. ترجم لى محتواها إلى الفرنسية ببراعة .. إن (مختار) من ذلك الطراز الذى ينطق وجهه بالذكاء وسوء الحظ معًا ، وثمة لمحة معينة من المرارة تراها من حين لآخر فى اضطراب ركن فمه حين ينسى أن يضحك .. وفى هذه المرة كان ينسى كثيرًا أن يضحك ..

كان البيت خاليًا إلا من الأم التى جلست فى الصالون على سبيل الترحيب بصديق (علاء) .. لعلها كانت تحمل ألف سؤال وسؤال ، ويبدو أنه قال لها إننى طلبته لحل خلاف جوهرى بينى وبين (علاء) .. لم تكن تفهم شيئًا و(علاء) لم يكن موجودًا ليفسر لها ..

فقط هى فوجئت بـ (مختار) يأتى إلى البيت فى العاشرة مساء ، وأنـا أقابله حاملة مجموعـة مـن الأوراق .. واضـح أن سلوكنـا مريب فعلاً .. لكنها على الأقل كانت تعرف أن (علاء) يمر بمشكلة ما ، وأنه صار غريب الأطوار ، وأننـا تشاجرنا هذه الليلة وبعدها انصرف (علاء) ولم يعد حتـى هذه اللحظة ..

قال (مختار) بعد أن فرغ من القراءة ومحاولة الاستيعاب :

ـ « نعم .. الإثنيـن .. ٣ يونيـو .. هذا آخر شـىء كتب هنا .. هنا تنتهى المذكرات اليوم بالذات .. واضح أنه كتبهـا فى ذلك المختبر ثم عاد بها إلى الدار .. أعرف مـا تريدين قوله .. كلانا لا نحب كثيرًا مـا نسمعه .. الأمـر غريب جدًا لكن علينا قبول الحقيقة . »

كانت الحقـائق المرعبـة التـى استخلصناها من مذكرات (علاء) هى :

١ ـ لم يكن (كومارسكى) يمزح .. لقد حل هـذا الشـىء بـ (علاء) فعلاً ..

٢ ـ (علاء) قـد أعـد كـل شـىء كـى تعـود أبحـاث (كومارسكى) للحياة ، بل بدأ التطبيق !

٣ ـ هناك فتاة مهددة هى تلك البائسة (نسرين) .. ربما كنت لأتعاطف معها أقل لو كان يحمل أدنى ميل نحوها ، لكن من الواضح أنه يخدعها لا أكثر .. آخر كلماته تحدد لنا بالضبط ما سيكون ..

٤ ـ من الواضح أنه لم يفقد إنسانيته بعد .. هو يقاوم ما حل به كأى مريض عصاب .. لكن الشىء أقوى منه .. بدا هذا واضحًا الليلة .. لو كان يسيطر على الظاهرة لما فعل ما فعل .. ولو كانت الظاهرة تسيطر عليه لأصر على أن يكمل ما بدأه معى .. هذا يذكرنى بالفيروسات التى تغزو البدن .. قد تكون مناعة الجسد عالية تبيد الفيروس ، وقد تكون واهنة فلا يحدث شىء ويظل المريض يحمل الفيروس كحامل عدوى للأبد .. أما أن تتساوى مناعة الجسم مع شراسة الفيروس .. عندها يكون الالتهاب العنيف المدمر ..

أمسك (مختار) بورقة مكتوبة بالعربية وجدها بين الأوراق ، وقال :

ـ « هذا عقد الشقة المفروشة .. يمكن القول إننا نعرف أين يذهب الآن .. »

قلت له :

ـ « والحل الصائب ؟ »

قال وهو يتأمل الأوراق :

ـ « سألحق به الآن هناك .. فى الغالب هو هناك .. سأعرف كيف أمنعه .. أرجو أن تعيدى المذكرات لمكانها بدقة . هذا يضمن لنا أن نعرف ما سيحدث وليس ما حدث فحسب »

ثم ضاقت عيناه فى شرود وقال :

ـ « لا أعرف إن كان هناك تفسير مادى لهذا الذى يجرى له ، ولا أدرى إن كان من الصواب تجربة سبل مادية مع شىء ميتافيزيقى .. لكنى سأحاول .. سأراهن على أن موجات دماغية غريبة تسيطر عليه ، وأعتقد أن العلاج بالصدمات الكهربية ECT قد ينجح فى إعادة أيونات دماغه إلى توازنها الطبيعى .. »

ـ « صدمات كهربية ؟ وكيف ؟ »

ـ « دعى الأمر لى ، فالجهاز معى فى السيارة .. لكنى أريد منك أن تبقى جوار الهاتف .. أعتقد أننى سأحتاج إليك هذه الليلة خاصة لو تصرفت وحدى .. »

لم أدر ما أقول .. أنا مريضة منهكة نزفت دمًا كثيرًا ، لكن رغبتى فى الاحتفاظ بمن أحب جعلتنى قادرة على التماسك .. سأقاوم .. وغدًا سأكون أفضل ..

* * *

بعد ساعة ونصف دق جرس الهاتف .. رفعت السماعة فى لهفة ، فسمعت صوت د . (مختار) يقول :

ـ « انتهى الأمر ! إنه معى ! هل تستطيعين النزول الآن ؟ »

ووضع السماعة قبل أن يسمع ردى ..

كان هذا شبه مستحيل .. لكن لم لا ؟ لا أحد فى الدار سواى وأم (علاء) ، وعلى قدر علمى هى تغط فى النوم الآن .. ثم إننى فتاة رشيدة ولن يمنعنى أحد من مغادرة الدار ، خاصة وأن زوجى ينتظر بالخارج .. لن يقيد أحد حريتى ..

ثمة مانع واحد هو أننى فى أسوأ حال وقدماى عاجزتان عن حملى ، لكنى تماسكت .. أستطيع عمل هذا .. سوف أنجح ..

ارتديت ثيابى وأخذت حقيبتى ، وبرفق عالجت الباب .. أعتقد أن أذنى السيدة لم تعودا على ما يرام ، بسبب تصلب العظام والسن .. وحتى لو لم يكن الأمر كذلك فلن يمنعنى أحد من النزول .. لقد صرت غير قابلة للإيقاف ..

ونزلت فى الدرج ببطء ؛ كى لا يعاودنى النزف ..

أخيرًا وقفت فى الهواء الطلق شاعرة بقطرات العرق البارد تحتشد على جبينى ، لكنى كذلك كنت أشعر بحاجتى إلى الهواء ..

سيارة تقف أمام المدخل ، وأنوارها مطفأة لكنى أرى الباب مفتوحًا وجواره د . (مختار) .. وفى المقعد الخلفى لمحت ظلاً ما يرجع رأسه للخلف ..

دنوت من السيارة أكثر . إن لم يكن هذا هو (علاء) نفسه ....

صحت وأنا أنظر من النافذة الخلفية :

ـ « (علاء) ! ماذا دهاك ؟ »

نظر لى بعينين لا تريان .. عينين بلون الدم .. ثم أغلق عينيه كأنما يعود لغيبوبة ..

قال لى د . (مختار) وهو يستند إلى الباب ويشعل لفافة تبغ :

ـ « لا تقلقى .. لقد أفاق من فوره من جرعة (كيتالار) مخدرة ، وجلسة كهربية .. كيف تحسبيننا نجرى الصدمات الكهربية ؟ على شخص واعٍ متيقظ ؟ »

وقفت أرتجف غير فاهمة ، فقال لى :

ـ « كان على وشك إنجاز مهمته ! »

فتحت عينى غير فاهمة ، فقال فى صبر :

ـ « الفتاة كانت عنده فى الشقة التى استأجرها وكانت مقيدة مكممة .. أعتقد أنه قابلها بعد ما انتهت ساعات عملها ، واستدرجها بشكل ما إلى المختبر .. كانت هناك عدة أسياخ وإبر .. وموقد صغير .. أعتقد أنه كان على وشك البدء فى استخلاص الظاهرة .. وكانت الفتاة مربوطة بالأسلاك التى تتصل بجهاز صغير .. حاول منعى من دخول الشقة لكنى دخلت ، ورأيت المشهد .. هناك كان قد تحول إلى وحش حقيقى .. انقض على وراح يعتصر عنقى . ألقانى أرضًا .. إن (علاء) ليس ضعيفًا فإذا أضفنا لهذا قوة الجنون لكانت النتيجة مرعبة .. شعرت بأننى .... »

وكشف عن عنقه .. وبرغم الظلام استطعت أن أرى السحجات والكدمات الحمراء على منبته ..

ـ « شعرت بأننى أغيب عن العالم .. ولا أعرف كيف مددت يدى إلى جيبى وأخرجت المحقن وغرسته فى كتفه .. »

وألقى بلفافة تبغه .. ثم أشعل أخرى بيد ترتجف ..

نظرت له محتجة لكنى كنت أضعف من أن أتكلم .. قال :

ـ « غاب عن الوعى فقمت بإحضار جهاز الصدمات

الكهربية من السيارة .. إنه خفيف الوزن كما تعلمين ، أقرب إلى صندوق خشبى صغير .. قمت بكل شىء وحدى .. وفى النهاية مررت التيار فى رأسه .. لا أعرف ما حدث .. لكنى أعتقد أنه هدأ قليلاً .. لو كان بوسعنا أن نجرى له تخطيطًا دماغيًا قبل وبعد الصدمة ، فلا شك أننا سنجد نتيجة واضحة .. بمجرد أن أفاق ساعدته على النزول ليرقد فى المقعد الخلفى للسيارة »

ثم ابتسم ابتسامة صفراء فى الظلام ، وقال :

ـ « وها نحن أولاء ! »

برغم أننا أقرب إلى الصيف منا إلى الربيع ، فإننى شعرت بأن البرد ينخر عظامى .. سألته وأنا أعقد ذراعى حول جسدى :

ـ « حسن .. والفتاة ؟ »

ـ « حيث هى ! لا أعرف الحل الصائب .. لكنى أضمن لك شيئًا واحدًا .. لو أطلقنا سراحها لملأت الدنيا صراخًا .. أعتقد أن علينا أن نقرر غدًا ما سنقوله لها .. »

ـ « هل تجد لديك من القسوة ما يسمح لك بتركها وحدها فى ذلك البيت الرهيب ؟ »

ـ « بمقدار ما لديك من القسوة التى سترسل (علاء) إلى السجن ، أو المصحة العقلية .. »

الحق أن الموقف بدا لى بلا فكاك .. (علاء) مريض ولا يستحق ما سيحدث له .. لكن الفتاة ..

ـ « اتركى لى الأمر وسأعرف كيف أدبره .. »

ثم ألقى بلفافة التبغ وأشعل أخرى .. تمنيت أن يظل حيًا إلى أن نتفق على سياسة ما .. قال :

ـ « النقطة الأخرى هى أننى أخشى أن يفيق (علاء) ليتذكر كل شىء أو يأتى برد فعل مما نسميه Rebound أو تفاعل الارتداد .. لا أعرف ما قد يحدث له غدًا ، لكنى أوصى أن يبقى بعيدًا عنا .. لربما نسى كل شىء عما حدث له .. ولربما تخلص من هذه الظاهرة فعلاً .. »

قلت فى شرود :

ـ « فندق ! »

ـ « نعم .. سيقضى الغد كله وحيدًا فى فندق بعيدًا عن الأحداث .. وإننى لأعتقد أن صدمة الإفاقة فى مكان غريب قد تلعب دورًا فى الشفاء .. »

ـ « وهل حالته تسمح بالبقاء وحيدًا ؟ »

ـ « هو ليس مريضًا .. عقله هو المريض وقد بدأ عملية الشفاء .. »

ثم بحث فى جيبه وقال بحرج :

ـ « لا أملك مالاً يكفى الآن فلربما .. »

قلت له وأنا أفكر فيما قال :

ـ « إن (علاء) يحمل بطاقة الائتمان دومًا فلا تخش شيئًا .. »

ـ « إذن فلنسرع .. كلما أفاق ونحن لسنا معه كلما كان هذا أفضل .. »

وأضاف وهو يستقل السيارة :

ـ « أو هذا ما أرجوه .. »

ودون كلمة أخرى درت لأركب فى السيارة جوار (علاء) .. وانطلقنا فى ظلام الليل متجهين إلى وسط القاهرة ..

مر (مختار) على داره ولختفى لدقائق ، ثم جاء بحقيبة ، يبدو أنه وضع فيها بعض المستلزمات لـ (علاء) .. ربما منامة وما إلى ذلك ..

كان (علاء) قد بدأ يفيق ، وراح يهذى بكلام لا تفهم أوله من آخره .. ثم نظر لى وتساءل فى توتر :

ـ « إلى أين نحن ذاهبان ؟ »

قلت بلهجة لا أثر فيها لأى انفعال وكأننى أخاطب رضيعى :

ـ « إلى الفندق .. كما تعلم .. نحن تنزهنا والآن نعود إلى الفندق .. »

هز رأسه فى فهم وقد اتسعت عيناه تقديرًا لأهمية هذه المعلومة ، وكأنما أهديته سر الكون ، ثم أغمض عينيه وواصل النوم ..

كل هذا من (كليمنجارو) ! أنا الحمقاء التى نصحته بأن يجرب .. كان مترددًا .. لكنى أصررت واخترت له مصيرًا أسوأ من الموت بكثير .. للمرة الأولى يا (علاء) أتمنى لو أنك لم تعد .. كنت ستلقى نهاية أكثر شرفًا من هذه .. نهاية لا بد أنك كنت تفضلها وتشتهيها ..

وتدافع الدم إلى غددى فمنخرى فرحت أتهاتف فى ظلام السيارة ، وسمعت (مختار) يقول من المقعد الأمامى :

ـ « تماسكى بالله عليك .. سوف نثير ريبة موظفى الفندق ! »

مددت يدى فى الحقيبة وأخرجت نظارتى السوداء التى قلما أرتديها .. لا أعرف لها نفعًا إلا إخفاء العيون المتورمة المحمرة الدامعة .. نظارة سوداء فى الليل .. سيقولون إننى امرأة غريبة الأطوار .. هذا خير من امرأة تبكى ..

اجتزنا مدخل الفندق ، وكان موظف الاستقبال يكلمنا وعيناه ثابتتان على (علاء) !! إنه واع لكنه لا يتفاعل ولا يتكلم .. فيما بعد عرفت أن (مختار) أفهم الموظف أن (علاء) ثمل .. وأننا نرغب فى أن يجد غرفة هنا حتى لا تحدث شوشرة .. ومد يده وأخرج من جيب (علاء) أوراقه ..

جاء خادم الغرف ، فصعدنا معه حتى الغرفة التى وجدناها .. نقده (مختار) (بقشيشًا) طيبًا مقابل أن يلبى كل ما يطلبه ساكن الغرفة ، وألا يزعجه أو يسمح لأحد بإزعاجه .. وتأكدنا من وضع لافتة (لا تزعجنى) معلقة من مقبض الباب بالخارج ..

قال (مختار) وهو يتنفس الصعداء :

ـ « سأوصلك للبيت الآن .. وأرجو أن يعود (علاء) إلى بيته وإلى حقيقته .. »

ـ « هل يحدث هذا غداً ؟ أعنى (اليوم) فقد بدأ فعلاً .. »

ـ « ربما .. لكنه مرهق .. مرهق إلى حد أنه قد يمضى اليوم كله فى الفراش .. أعتقد أنـه سيعود يوم الأربعاء .. وإن لم يعد سآتى هنا لأعيده بنفسى .. »

ثم نظر لى وابتسم :

ـ « لا تقلقى .. إنه لم يفقد كل ذاكرته .. سينسى تجاربـه فقط .. لكنه لن ينسى من هى امرأته وأين بيته .. »

ـ « أتمنى ذلك .. »

* * *



الثلاثاء ٤ يونيو :

أنا الآن أكتب هذه الكلمات ، منهية أحداث يوم طويل .. ترددت طويلاً قبل أن أقرر هل هذه الأحداث تقع فى نطاق الإثنين أم الثلاثاء .. نميل إلى اعتبار أن يومنا الفسيولوجى هو الساعات التى نبقى فيها يقظين .. فى النهاية قررت أن تنتصر الجغرافيا ، وأن أعترف بأننى فى يوم الثلاثاء ..

سأستريح اليوم .. لن أفعل أى شىء سوى الرقاد فى الفراش ، عازمة على أن أستجمع قواى ، كى أواجه ما يجب أن أواجهه !

أعدت الأوراق إلى الخزانة .. كلها تقريبًا ، لأنى لم أجد تلك الأوراق المكتوبة بالبولندية .. كانت فى الملف حين عرضتها على د . (مختار) .. لا أريد أن يلاحظ (علاء) اختفاء شىء يبحث عنه .. سأطلب من (مختار) غدًا إعادتها لى ..

من المريع أن (علاء) كان يأخذها معه فى الصباح كل يوم ، ويعيدها لموضعها فى المساء .. هل هو الحذر ؟

لا .. بل الأمر أشنع من هذا .. كما يفعل البخيل الذى يكره أن يترك ماله فى المصرف بعد ساعات الإغلاق .. من ثم يسحب ماله يوميًا كى ينام معه !!

★ ★ ★

ياله من يوم ! اكتظ بالناس ، والكل يبحث عن (علاء) .. لماذا لم يعد أمس ؟ تشاجر معى ثم غادر البيت غاضبًا .. ماذا كان موضوع المشاجرة ؟ لم يفهموا لأنها كانت بالفرنسية ..

أرى الشك فى عيونهم ، وربما بعض الكراهية .. الشيطانة الأجنبية التى جاءت لتجعل حياة ابنهم جحيمًا .. والأسوأ أنها لا تفهم الشتائم العربية ولا اللوم بالعربية ..

لا ألومهم على شىء .. الموقف لا يحتمل تفسيرًا آخر ..

مكالمات هاتفية .. صديقه (أشرف) يأتى وينصرف ..

لو كان لموقفى هذا مزية ما ، فهى أنهم يعتبرونه غاضبًا هجر البيت ، ولا يعتبرونه قد أصيب بضرر على الأرجح ..

★ ★ ★

الأربعاء ٥ يونيو :

من الناحية الصحية أعتقد أنني أفضل بمراحل .. إن راحة يوم كامل في الفراش مع الطعام المغذي قد أفادتني بحق .. إنهم يعنون بي جيدًا هنا ، لكنهم لا يكنون لي حبًا عارمًا خاصة بعد ما حدث ..

ثمة خبر مثير بحق .. لقد عاد (علاء) وكان القلق قد بدأ يعتصرني .. طلبت الفندق مرتين أمس ثم عدلت عن الكلام بمجرد ما كانت السماعة ترتفع في غرفته .. على الأقل هو هناك ..

الآن عاد .. لكني لم أستطع أن أفصح عن شيء .. قابلته في فتور ، لكن البكاء غلبني .. تواريت في الغرفة الداخلية شاعرة بالغيظ من نفسي .. أوشك هذه الأيام أن أتحول إلى صنبور مياه ..

بالنسبة لأهله كان اللقاء عاصفًا .. لا أعرف ما قيل بالضبط لكنه يحوي الكثير من اللوم والصراخ ..

كل أبناء البحر الأبيض المتوسط لا يدخرون في ارتفاع الصوت وحركات اليد ، وقديمًا قيل إنه لو جاء مريخي من الفضاء ، ورأى الإيطاليين يتكلمون لحسب أن الإيطاليين صم وأن الإيطالية لغة إشارة ..

كل أبناء البحر الأبيض المتوسط لا يدخرون في ارتفاع

الصوت وحركات اليد ، وقديمًا قيل إنه لو جاء مريخى من الفضاء ، ورأى الإيطاليين يتكلمون لحسب أن الإيطاليين صم ، وأن الإيطالية لغة إشارة ..

شىء واحد أعتقد أننى متأكدة منه .. هم لم يخبروه بموضوع مجىء (مختار) ليلا ونزولى فى ساعة متأخرة ـ لو كانت أمه العجوز لاحظت ذلك ـ ولعلهم يحاولون ألا يزيدوا تعقيد الأمور المعقدة أصلا ..

فى النهاية جاء (علاء) .. وكنت جالسة على الفراش أحاول أن أقرأ مجلة طبية .. عواطف متناقضة بين أن ارتمى على صدره وأعترف بكل شىء .. أو أبكى فرحًا بعودته .. أو أتظاهر بالبرود .. وقررت أن ألعب الدور الأخير ..

ومن الغريب أنه طلب منى أن نتنزه فى القاهرة القديمة .. أغرب فكرة تخطر له فى هذه الظروف بالذات ، وإن كانت قد راقت لى . يجب أن نمشى معًا .. نتبادل حديثًا طويلا معًا .. يجب أن أعرف إن كان بقى لديه شىء من تلك الظاهرة اللعينة ..

وفى المساء كنت أشعر بأننى استعدته .. لقد بدأ يصير هو .. والغريب أنه لم يبد على علم على الإطلاق بمشادة المساء المشهود ، وقصة إجهاضى المنذر .. كأن هذه اللحظات محيت من ذاكرته تمامًا ..

هل الدكتور (مختار) عبقرى أم محظوظ أم أنا حمقاء ؟

سوف يعطى الزمن الإجابة الصحيحة ..

* * *

الخميس ٦ يونيو :

أتحسن بلا شك .. لقد عاد لوجهى لونه الآدمى بعد ما كان قد قرر أن يتحول إلى ثمرة ليمون ..

ولكن حدث شيء سخيف اليوم .. (علاء) قرر أن يذهب إلى (حلوان) !

وأنا أعرف ما يفعله فى (حلوان) .. هل كنت واهمة ؟ هل الأمر أجمل من أن يكون حقيقة ؟

اقترحت أن أذهب معه ، لكنه رفض بشكل قاطع ..

اتصلت بالدكتور (مختار) .. هذا الرجل لم يعد يرد على الهاتف على الإطلاق .. أعتقد أنه يرى رقم هاتفى عنده ، فيوقن من أن مكالمتى لن تجلب إلا المزيد من المتاعب .. وكالعادة لا ألومه على ذلك ..

لا يوجد شيء أفعله .. سأنتظر عودة (علاء) ..

من يدرى ؟ ربما أصارحه بكل شيء ..

* * *

الجمعة ٧ يونيو :

مازال النقيضان : أنا أتحسن و(علاء) يتدهور .. ومازال (مختار) لايرد ..

ماذا يحدث هاهنا ؟؟؟

(علاء) يغادر البيت كثيرًا هذه الأيام فماذا دهاه ؟ هل عاودته حالة الاستحواذ هذه ؟ أحيانًا أحسبه شفى كأنما لم يمرض قط ، وأحيانًا أجده مريضًا كأنما لم يكن لى فى يوم من الأيام ..

ماذا يدور فى ذهنه ؟

أعتقد أنه مستمر فى تدوين مذكراته ، لكننى لا أجد الشجاعة الكافية كى آخذها من جديد ، دعك من أنه ليس هناك من يترجمها لى .. إن مترجمى الوحيد لايرد على الهاتف ..

* * *

السبت ٨ يونيو :

عاد (علاء) اليوم مثخناً بالجراح ..

الجراح النفسية ما أعنى .. وليتها كانت جسدية .. إن الأخيرة تبرأ على كل حال ..

جلس يدون مذكراته بعض الوقت .. استغرق الكثير من الوقت فى الواقع كأنما يحكى ذكرياته منذ تلقى صدمة الولادة الأولى .. ويبدو أننا سنتحول مع الوقت إلى أديبين عظيمين ..

هذه العطلة تحتاج إلى عطلة أخرى كى ننسى قروحنا النفسية .. ليس لبلده ولا أهله ذنب ، فقد جئنا نحمل معنا تلك اللعنة من (كينيا) ، لكنى سأظل أذكر هذه الإجازة طويلاً جدًا .. وليتنى كنت أجهل ما هنالك .. إذن لفسرت ما يحدث بالملل الزوجى أو الخيانة أو تفسير سطحى مريح آخر ، وكنت سأستمتع بلعب دور الشهيدة المضطهدة ..

لكنى أعرف أن السرطان النفسى ينخر فى روحه .. إنه لمشهد أليم كثيرًا عما لو كان سرطان القولون هو الذى يمزقه .. ولا أستطيع تجاهل هذا ..

يا لعينيك الذابلتين ! يا للنظرة المتعبة الغارقة فى الندم فى عينيك ! لو كانت الفراسة كافية لإصدار الأحكام لأعدموك فورًا فى ميدان عام بلا محاكمة ..

جاء قرب الفراش حيث أتربع ، وصمت كأنما يبحث عن شيء يقوله .. فنظرت له متسائلة ..

ـ « ثم ؟ »

رفع حاجبيه مندهشًا ، فقلت له :

ـ « تبدو بصدد اعتراف عظيم الخطر .. »

ابتلع ريقه وتحاشى نظراتى ثم قال بصوت مبحوح :

ـ « إنه اعتراف بسيط .. ولا أعرف إن كان يهمك أم لا .. »

ثم غطى وجهه بيده وأردف :

ـ « أعتقد أننى قتلت .. على الأقل ثلاثة أشخاص ! »

★ ★ ★

يا لك من أحمق ! يا لك من معتوه ! إنك تزداد خبالاً يومًا بعد يوم ..

لقد حكى لى كل شىء .. كان يبكى كطفل ، وكنت أربت على شعره وأتخلل خصلاته الخشنة ، وأنا أردد بلا كلل :

ـ « صبرًا أيها الأحمق ! صبرًا أيها الساذج .. »

كان اعترافه لى مرعبًا .. على أقل تقدير يمكن القول إن هناك فتاة ميتة دفنت فى جدار تلك البناية المتهالكة ، لكن هل هى (نسرين) حقًا ؟

قلت له فى غيظ من حماقته :

ـ « لا يمكن أن تكون اقترفت هذا .. هل تعرف السبب ؟ لأننا أنقذناك من نفسك أيها الأحمق ! أنقذناك ووضعناك فى فندق ، وحين أنقذناك كانت الفتاة حية ترزق .. »

بدا عليه الكثير من الحمق فعلاً .. فلم أكن مخطئة فى وصفى له .. وكنت مرهقة عاجزة عن شرح كل شىء فناولته هذه المذكرات .. وقلت وأنا أخرجها من تحت حشية الفراش :

ـ « اقرأ هذا .. فلست أنت الوحيد الذى يكتب مذكراته خلسة ! »

وجلست أراقبه وهو يقرأ بسرعة جنونية .. لابد أنه قرأ هذه المذكرات فى خمس دقائق ..

بدا أنه فرغ من القراءة ، فنظر لى بعينين تتوسلان غطتهما سحابة من الدموع الرجولية التى تأبى الانزلاق لأسفل ، وقال :

ـ « إذن أنا مدين لك بكل شــىء .. لكن من يضمن لى أننى لم أغادر الفندق لأتم ما بدأته ؟ كان عندى يوم الثلاثــاء بالكامل .. »

ـ « طلبتك فى الفندق أكثر من مرة وكان هناك من يرفع السماعة »

نظر فى ساعته وهتف :

ـ « التاسعة ؟ ربما كان هناك وقت .. فلنسرع الآن ! »

لم أدر ما يريد ، لكنه كان قد اتخذ قراره .. لا وقت للتفسير ..

وضعت ثوبًا ما على كتفى ، فأمسك بيدى وودع أمه وانطلقنا نثب فى الدرج .. حتى صحت فى رعب :

ـ « (علاء) !! أنا لا أستطيع ملاحقتك ! لاتنس أننى ... »

ووجدت نفسى فى الشارع ، بينما سألنى وهو يهرع كالمجنون إلى محطة المترو :

ـ « أنك ماذا ؟ »

ـ « أننى .... أننى .... لم أشف بعد بالكامل .. مازال من الممكن أن .... »

سألنى والمترو ينطلق بسرعته المجنونة :

ـ « أن ماذا ؟ »

ـ « أن يعاودنى النزف لأن .... »

نهرع خارجين من المحطة ، وهو يسألنى :

ـ « لأن ماذا ؟ »

قلت وأنا أجِدُ السير وراءه :

ـ « لا شىء .. انس الموضوع ! »

(أعرف أن المسافة أطول من هذا ، لكنى فقط أستخدم نوعًا من المبالغة الأدبية ..)

رحنا نمشى بين شوارع الضاحية الهادئة ، حتى بلغ تلك المساحة الخالية . دار عند أول منعطف على اليمين ، وهناك كانت ورشتان .. إحداهما أغلقت والأخرى يقف أمامها رجل يبدو من الحرفيين ، وكان منهمكًا فى غلق المحل ، حين استوقفه (علاء) وسمعته يسأله :

ـ « أسطى (عبد الوهاب) ؟ »

هز الرجل رأسه فى شك ، فتبادل (علاء) معـه محاورة بالعربية لم أفهم منها حرفًا ..

فى النهاية شكره (علاء) وعاد لى وعلى وجهه ضحكة منتصرة ، وقد بدا لى شخصًا آخر .. قال لـى وهو يمسك بيدى :

ـ « لحسن الحظ أنه لم يغلق الورشة بعد .. إن غدًا هو الأحد يغلقون متاجرهم مبكرًا .. هذا الرجل جاء إلى الشقة يوم الثلاثاء ليصلح عطلاً كهربيًا .. سـألته إن كنت أنا من طلبه فقال إنه لم يرنى قط .. الآخر نحيل بعوينات سميكة .. ويدخن بفظاعة .. »

تبادلنا النظرات ، وهمست :

ـ « يصف لنا (مختار) صديقك !! »

* * *

لم يكن (علاء) هو الذى دخل الشقة وفتحها يوم الثلاثاء ..

كان فى الفندق بين فقدان الوعى والنوم وعدم الاتزان .. فقط كان الهاتف يدق فيرفع السماعة بطريقـة آليـة ثـم لا يسمع أحدًا فيعيدها لموضعها ..

(علاء) لم يقتل ولم يعذب أحدًا .. وإن دنا من ذلك كثيرًا ..

ولو حامت حوله الشكوك ، فإن موظفى الفندق ـ برغم كثرة أعمالهم ـ قد يقدمون له حجة الغياب Alibi .. فهو لم يغادر الفندق فقط ..

النقطة المثيرة للفزع هنا هى أن الشكوك تحوم حول (مختار) ..

لقد عاد إلى الشقة .. إذن هو اصطنع لنفسه مفتاحًا آخر .. هو من طلب الكهربائى .. هو من فتح النوافذ ليراها (أشرف) صديق (علاء) ..

لماذا ؟

بعد يوم قضاه فى الشقة ظهرت ثلاث بلورات وجلباب أزرق .. وظهرت جثة مدفونة فى بئر السلم .. ماذا يعنى هذا ؟ الجواب كما عرفته وعرفه (علاء) هو أن الظاهرة تركت (علاء) واختارت معالجه !

حين سرى التيار الكهربى فى مخ (علاء) ، قررت الظاهرة أن تهاجم شخصًا آخر .. كما كان مرضى الطاعون يحسبون قديمًا : أنك إن أصبت واحدًا آخر بالعدوى تشف

أنت .. هذا ما حدث حرفيًا هنـا .. وإن لم يحدث بسرعة .. لقد ظل (عـلاء) يفكر فـى الظـاهرة بعض الوقت ، وحين أفاق من غيبوبته أراد أن يعود إلى الشقة ..

فى تلك الليلة أوصل (مختار) (علاء) إلى الفندق بينما ذلك الشىء ينمو فى داخله .. مشـروعات كثيـرة تدور فـى ذهنه .. سـوف يستولى علـى الأبحـاث المكتوبـة بالبولنديـة التى تركتها معه .. لقد صار يفهمها فجأة .. هناك فتاة معدة للتجربـة فـى الشـقة ، وكل الأجهزة معدة متأهبـة ، فلمـاذا يضيع هـذه الفرصـة ؟ هكذا تركنـا وعـاد إلى الشقة ليفتحهـا ويقبع فيها ..

ترى من الذى مر على الشقة يوم الثلاثاء فسـقط فـى يد (مختار) ؟ من هو Y ومن هـو H ؟ أحدهمـا كـان يلبس جلبابًـا أزرق . (عـلاء) يعتقـد أن (حجـازى) السمسـار مـر علـى الشقة فى هذا اليوم بالذات .. وإلا فمن اين جاء حرف H ؟

لم ينقذ الكهربائى إلا أن الكهرباء كانت مقطوعة ، ولعل (مختار) توقع أن يكون أخبر أحدًا بوجهته ..

كنت أفكر فى هذه الخواطر و(عـلاء) يفتـح بـاب الشـقة الرهيبة ..

رائحة العطن والقدم تفوح من كل شيء ، لكنها الآن صارت رائحة الموت ذاتها ..

رحت أرمق كل التجهيزات التى تحدث عنها (علاء) والبرد يغزو عروقى ..

لقد فعل كل هذا وحده وتحت التأثير القاتل لذلك المخبول (كومارسكى) ..

قلت له :

ـ « هل نبلغ الشرطة بما توصلنا إليه ؟ لا بد من أن يعرف أهل المفقودين مصير ذويهم .. »

قال فى ضيق وهو يضىء نور الحمام :

ـ « بالتأكيد .. سيتضح السر يومًا ما ، وعندها يتذكر الجميع الطبيب الملتحى الذى رغب فى إنشاء ورشة لتجميع اجهزة الكمبيوتر ولم يفعل .. يجب أن أثبت براعتى هنا والآن .. هنا والـ .... »

ثم صمت فجأة .. ووقف على باب الحمام ..

ـ « (علاء) .. هل من شىء ما ؟ »

قال فى وجوم :

ـ « لا تأتِ هنا .. ليس المنظر جميلاً .. »

ونظرت عند قدميـه فعرفت أننا لم نر بركة الدم هذه لأن الظلام كان دامسًا ..

ارتجفت .. رائحة الدم جعلتنى أوشك على القــىء .. الآن أشمها بعدما رأيت ..

ـ « من هو ؟ »

قال وهو يوارب الباب :

ـ « (مختار) ! »

* * *

اتجه (علاء) إلى الثلاجة الأفقية التى يطلق عليهـا اسم (المفاعل) ووقف يرمق مـا بداخلهـا .. مـا إن يفتحهـا حتى تتصاعد أبخرة زرقاء مضيئة .. مشهد غريب حقًا ..

دنوت منه أكثر لأرى ، فوجدت أن الداخل ملىء ببلـورات مهشمة .. حوالى عشر منها ..

ـ « ما معنى هذا ؟ »

قال وهو يمد يده يتفحص الزجاج المهشم :

ـ « هناك من هشم البلورات كلها .. إمـا أن يكون (مختـار) فعل هذا أو من جاء بعده .. »

ـ « وهل هناك من جاء بعده ؟ »

ـ « إذن من قتل (مختار) ؟ »

ثم أغلق الباب واستند إليه وقال :

ـ « لقد تحررت الظاهرة .. خرجت من معقلها .. ومن يدرى ؟ لربما اكتسبت هى ذاتها خاصية مادية ما .. لربما هى التى قتلت (مختار) .. لربما لم يمس الفتاة ولا باقى الضحايا .. »

ثم غمغم :

ـ « سألنى الكهربائى عن سبب الأضواء الزرقاء المنبعثة من الشقة ليلاً .. أعتقد أن لدينا من يقوم بأعمال اللحام ، وبدا له هذا غريبًا .. »

ـ « وهذا يعنى ؟ »

فى ضيق هز رأسه :

ـ « لا أعرف أى شىء على الإطلاق .. لا أعرف .. »

كان يتكلم وهو يتجه إلى قابس الكهرباء فانتزعه من مكانه فكفت الثلاجة عن الهدير .. ثم بجنون راح يمزق الأسلاك كلها ..

اتجه إلى الحمام، وعاد حاملاً حاوية بها كيروسين .. عرفته من الرائحة ..

ـ « (علاء) .. ماذا تحاول عمله ؟ »

ـ « هذا .... »

وأفرغ محتويات الحاوية على الثلاجة والأجهزة المعقدة الموجودة هناك .. ثم أخرج علبة ثقاب وأشعل عودًا .. قال لى وهو يمسكه بين اصابعه :

ـ « اتجهى إلى الباب وانزلى فى الدرج .. »

ـ « أنت مجنون .. ستحرق البناية كلها ! »

ـ « ليتنى أستطيع هذا ! »

وسقط العود الملتهب على الكيروسين فاندلعت الشرارة منتشرة فوق السائل، وسرعان ما لحق بى (علاء) ورحنا نهبط فى الدرج بينما ألسنة اللهب تتأجج ..

ـ « لكن هذا سيحضر رجال الإطفاء .. وسوف .. »

قال وهو يلهث لاحقًا بى :

ـ « لا بد من تدمير هذا السر اللعين .. لن تجد الظاهرة مكانا تقضى فيه ليلتها ! هذا يشبه ما يفعلونه حين يضعون

صلبيًا فى تابوت مصاص الدماء الفارغ ، لمنعه من العودة إليه عند الفجر .. »

هنا شعرت بالأرض ترتج تحت قدمى ..

ـ « (علاء) .. ما هذا ؟ »

ـ « اركضى ! »

وخرجنا إلى الشارع المقفر المظلم ، حتى إننا خضنا حتى الكاحلين فى بركة الماء الآسن بالخارج ، وأجفل قط كان يحاول الشرب حين رآنا ننقض عليه ..

ونظرنا إلى الوراء حيث كانت البناية ..

إنها تتهاوى !

لم يحدث هذا على مراحل كما نرى فى الصور .. لكنها هبطت غائصة فجأة كأنما هى قصر من أوراق اللعب هدمه طفل شقى .. ومع هبوطها تصاعدت سحابة كثيفة من الغبار جعلتنا لا نرى أيدينا .. ومعها صوت ارتطام مدوٍّ رهيب كأنه بركان ينفجر .. ضوء أزرق غريب أحاط بالطابق العلوى فى أثناء هبوطه ثم تلاشى .. وساد ظلام وصمت رهيبين .. صمت دامس وظلام مطبق إن جاز لى قول هذا ..

قال (علاء) وهو يعتصر كتفى فى توتر :

- « إنها الظاهرة .. كانت فى الداخل ! لقد دمرتها النار ودمرت هى البناية فى لحظتها الأخيرة »

* * *

إلى حد ما يمكن القول إن الكابوس قد انتهى ..

هذه البناية بحالتها السابقة كانت مهددة فعلاً بالسقوط ، ولن يندهش أحد لما حدث لها ..

ربما يجدون بعض الجثث بين الأنقاض وإن كنت أشك فى هذا .. سيقولون إنهم أشخاص تواجدوا هنا لسبب ما ..

لا أعتقد أن الأمر انتهى بالنسبة لـ (علاء) ، وأعتقد أنه سيبحث عن طريقة يخبر بها أقارب المفقودين بما أصاب ذويهم .. لا أعرف كيف ، لكنه سيفعل ..

أرى هذا فى عينيه ..

أعتقد أن الوقت قد حان كى نبدأ إجازة حقيقية ، وكى يعود لنا المرح الذى افتقدناه .. صحيح أنها إجازة قصيرة جداً الآن لكنها ستكون كافية .. إن هؤلاء القوم طيبون وأكره أن يفهمونى بشكل خاطئ .

ولكن السؤال الذى يؤرقنى وسوف يؤرق (علاء) كثيرًا هو : من قتل (مختار) ؟ هل شخص آخر حلت به الظاهرة أم الظاهرة نفسها ؟

هل انتهت الظاهرة بموت (مختار) وانهيار البناية واحتراق المفاعل ؟ أم أننا فقط نريد أن نعتقد ذلك ؟

والسؤال الأهم : اين تلك الأوراق التى تشرح النظرية بالتفصيل ؟ الأوراق المكتوبة بالبولندية .. نحن لم نجدها فى أى مكان ، ولا أجسر على التساؤل :

فقط لنأمل ألا تقع فى يد تعرف كيف تستخدمها .. وعقل شخص يكتشف أنه يجيد البولندية فجأة ..

سيكون هذا مريعًا لو حدث ..



روايات مصرية للجيب

سافاري

الظاهرة

فلنفرض - لمجرد الفرض - ان الظاهرة حقيقة ، ولنفرض انها تحررت وانتقلت إلى الدكتور (علاء عبد العظيم) .. لنفرض الآن انه يحملها معه إلى مصر .. لنفرض انه سيجربها على من يحب ليظفر بنتائج غامضة .. فلنفرض - لمجرد الفرض - ان هذا حدث ، فماذا ننتظر ؟



د. احمد خالد توفيق

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة

العدد القادم

H.I.V